(٣)

إشراقات جديدة

للنساء.. حكايات

قصص

هالة فهمى

دراسة :

محمد محمود عبد الرازق



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠١

إشراقات جديدة
تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
عبد العال الحمامصى

مدير التحرير
حزين عمر

سكرتير التحرير
أحمد توفيق

المخرج الفنى
صبرى عبد الواحد

تصميم الغلاف
الفنان محمود الهندى

الإهداء...إلى

* من علمنى لغات الشعر والنثر...«أبى»
* من علمتنى حروف النطق والمنطق... «أمى»
* رفيف الطير والتغريد والشدو... «مى.. محمد.. محمود»
* من علمنى أن الحب عطاء فكان أول درس وحب بلا حدود.. «زوجى»

خادمة

كنت قد (سرحت) إلى الغيط بالبقرة الوحيدة لدينا، تركتها ترعى وجلست تحت شجرة أتأملها تلتهم البرسيم، كثيرا ماهفت نفسى لأشياء أطعمها ولكنى دائماً أنتهى إلى كسرة الخبز الجافة وقطعة الجبن القريش التى أحملها فى مخلتى..

جاء أخى الأصغر مهرولا إلى :

-لدينا ضيوف من سيدى أبو المجد، جاءوا يطلبونك...

تقافز قلبى طرباً : من العريس ؟

-عريس ؟ أى عريس ؟

سقطت منى فرحتى على الأرض وسقطتُ معها ألوذ بعيد ان البرسيم.

إذاً لماذا حضروا ؟

يريدونك لأبنتهم فى القاهرة..

-٤٢٣- خادمة : لا.. إلا خدمة البيوت.. لا وشقت صرختى صفحة السماء، فبات نصفها بلا شمس والنصف الآخر شمسه تحتضر، تحاملت على نفسى، أمسكت رسن بقرتى عائدة إلى منزلنا تتثاقل خطواتى، تأبى أن تترك هذا المرماح الذى يتسع لكل أحلامى..دخلت على أبى وزوجته وإخواتى يتقافزون فرحاً..

مبروك ياروحية : جالك شغل فى مصر عند سيدة طيبة جداً و... و...

لم أستمع للغطهم، هرولت إلى أمى فى حجرتها، وجدتها تبكى وقد عصبت رأسها، ألقيت همى بين أحضانها، غفوت فوق حجرها، لم تكن تملك لى شيئاً.. العيال كثيرون والحمل ثقيل على أبى فلديه زوجته الثانية وأولاده منها، غيرى وأمى...

فى الصباح حملتنى سيارة، بين دموع أمى وفرحة إخواتى :

إنكفائها تنتحب.. وقفزهم فوق السيارة يلمسونها ويحسدوننى لأنى بداخلها.. قال أبى :

– السيدة طيبة أ صلها من سيدى أبو المجد المجاورة لنا، عائلة كريمة تخاف الله وسوف يرعونك جيداً..

وأمى من تحت دموعها :

– خذى بالك على نفسك ياابنتى.. وأنقطع صوتها..

شقت السيارة الغيطان والترع حتى الأسفلت الأسود المغسول بدموعى.. وجدتنى وسط الزحام، الصراخ، ونفير السيارات والسباب لكل شيء، ياه حتى نسمة الهواء تختنق بالقاهرة لست وحدى من يختنق.. وسألت قائد السيارة الذى عرفت فيما بعد أنه أخو السيدة التى سأعمل عندها، شكله طيب ينظر بعطف منذ أول الطريق، لم يفتح فمه إلا عندما وصلنا.. سألته :

هل هنا سوق اليوم ؟

ابتسم قائلا :

هنا السوق كل يوم ولا أحد يشترى..

لم افهم كلامه.. وصلنا للسيدة، إنها صغيرة، ليست كأمى، أبنتها فى العامين وزوجها ودود، برودة ما تجمد مفاصلى وعظامى.. جلست لا أتكلم، هم أيضاً لم يتكلموا كثيراً، وضعت السيدة صينية من الطعام أمامى وانصرفت أجلستنى إلى المنضدة، رفضتْ أن أجلس فوق الأرض، منحتنى سريراً فنمت بجواره.. أشتاق للخبز الجاف والنوم على (الحصيرة) بجوار أمى، لاأريد أن ألتحف ستاناً، حضن أمى أدفأ.

السيدة تركت معى صغيرتها وخرجت، حملت الطفلة إلىّ كيساً من الحلوى، دفعتها به وجلست أبكى، وقعتْ على الأرض، أشفقت عليها رفعتها، ابتسمت ومدت يدها بالكيس مرة أخرى، فتحته وأعطيتها مابه، جلست تأكل حتى نامت دون ضجيج أو بكاء كأنها تشعر بى، حملتها فى حجرى ضممتها عفوياً أتشمم فيها دفئها..

جلست على الأرض أخاف أن أنام فى هذا السرير، لم أشعر بغربة عن صاحب البيت إنه يدلل السيدة والطفلة، أشعر نحوه بحميمية..

سمعت صوت المفتاح فى الباب، لم يتأخرا على إنها أول ليلة لى لعلهما خافا على الصغيرة..

أقبلت السيدة على طفلتها، قبلتها، أدعيتُ النوم جالسة على الكنبة لم توقظنى، حملتْ الصغيرة أمالتنى، غطتنى، ربتت على كتفى، أطفأت النور، خرجت اجتاحتنى نوبة بكاء.. هى حنون لكنها ليست أمى.. فى الصباح بدأت أحدق بكل شبر بالمنزل لا أعرف ماذا أفعل، لم أتعود خدمة البيوت ولا أدرى كيف تستخدم الأشياء، الفجر يؤذن وأنا جالسة أتذكر بقرتى :

من يسحبها الآن للجرن ؟ ! من يجلس تحت شجرتى ؟! والشمس على من تسطع فى بلدتى الآن ؟! أمى هل جففت دموعها ؟!

أفقت من دموعى على صوت السيدة :

روحية..

هممت أجرى.. أوقفتنى، أنى لا أعرف الغرفة.. ضحكت السيدة قائلة :

يافلاحة من هنا.. ابتسمت لأول مرة..

قالت : كل شيء جديد أعرف، أنك جاهلة !! سأعلمك..

قسوة عيشتى الأولى بدأت تذوب من ذاكرتى، غيرت ملابسى، كشفت شعرى، قدمى اعتادت الحذاء، عرفت النوم متأخراً..

مع السيدة رأيت القاهرة الحلم، بوجوهها المتقلبة.. السيدة تكرهها فى الزحام.. تهيم مثلى بالريف، تمازحنى..

أنت تحملين رائحة الطين هناك..

تضحك عاليا .. تعجبنى ضحكتها.. طريقة كلامها.. عوضتنى عن أمى، حتى عندما تنفعل

بدأت أخاف أن تعيدنى إلى زوجة أبى، تزداد هواجسى مع اقتراب أجازتى، السيدة تأخذنى للبلد تقود السيارة بعصبية، تسألنى مرات،

هل ستعودين ؟ !

نعم...

نزلت من السيارة فى ثيابى الجديدة، نظروا إلى مندهشين كأنى فتاة أخرى غير التى سافرت، ورأيت فيهم غرابة ما..

ارتميت فى حجر أمى، ضمتنى لصدرها، أبعدتنى، نظرت فى وجهى:

ربنا يخلى الست، هكذا قالت، ضمتنى ثانية، لم تبك، دخلت السيدة على أمى نقضتها لفافة من المال، حسابى لديها يأخذه والدى، قالت :

– دول من رو حية لك.. ولاتخافى عليها..

وقتها أردت العودة معها.. أحببت اسمى.. ومهنتى الجديدة خادمة.

رجولة أنثى

إقترب من فراشى ركع على ركبتيه ربت فوق ظهرى يوقظنى، تماديت فى نومى، لأقتنص المزيد من الحنان، داعب خصلاتى المنفلتة فوق الوسادة تعانقها فى شوق لملمها بين يديه طرحها فوق وجهى ابتسمت واستدرت.. طوانى الفراغ تباعدت جدران الحجرة، انتفضت:

أين ذهب؟!

أضأت الأنوار بالمنزل.. أكان حلما : شعرت بأنامله تتسلل، تخترق صدرى تهدهد قلبى، الساعة السابعة صباحاً.. أين ذهب هذا الرجل.. ألا يتخلص من عاداته تلك؟!.. نعم.. أنه فى العمل سيعود فى الواحدة ظهراً، سأرتب المنزل.. أغير من هيئتى قليلا.. أضع المساحيق.. أرتدى هذا الفستان.. أقدم له وجبته الشهية.. طاجن البمية، إنه يحبه كثيرا.. الساعة تقترب من الواحدة.. لو يتأخر قليلا حتى أنتهى من كل شيء.. لم أرتدِ..

ولماذا ألهث هكذا؟! أنسيت ما يفعله بى؟! بالأمس أشاح بوجهه عنى وأنا أبتسم له أقص عليه حكايات حفيده الصغير قال لى :

لاتسخفى كلام الطفل وهل يتحدث بهذا الخبل؟! أردف : أين وضعت أزرار قميصى ؟ ثم عاد وأختبأ داخل صمته منى، حتى طهوى لم يعد له طعم.. سألته يوما :

ماذا تغير.. أنا من تطهو منذ خمسة وعشرين عاماً !!

ملحك زائد.. كبر السن أصبح ينسيك..

ماذا أيضاً ؟

لم أعد أطيقك.. كالكابوس أصبحت..

ضاحكته حابسة غيظى.. لكنك مازلت حلمى..

حلمك فى تعذيبى !!

.. بل كيف احتملته أنا.. لم يفاجئنى يوما بقطعة ذهب تشرح صدرى

.. لم يدخل على بشوشا.. ويخبرنى اليوم بأننى كابوس.. يعيشه منذ خمسة وعشرين عاماً..

نسى سهرى على أولاده حتى كبروا.. صبرى على نذقه وإضطراب فكره.. ثوراته.. عجرفته على أهلى وأقاربى..

بعد إنسحاب الشباب والنضارة يواجهنى بالبغض.

أنا عصبية قليلا.. لا بل كثيراً منذ شهر صرخ بوجهى : أخشى أن أستيقظ يوماً فأجدك تحلقين ذقنك.. لو اشتريت رابطة عنق أشعر أننى واجب على أن أشترى لرفيقى فى المنزل مثلها!!

ومن سلب أنوثتى ؟! ألست انت ؟

– أنه تسلطك.. حربك الضروس للطبيعة لتزحزحينى عن مكانى ومكانتى يبدو لى أنكِ قد نجحت.. أشعر فى بعض الأحيان أننى تحولت لإمرأة وأحيانا أرانى صورة رجل تعلقينها للتبرك بها فقط!!

لو أتخذت قراراً.. تصدرين عكسه فوراً أمام الأولاد..

أنت كاذب.. هل نسيت إهاناتك لى أمام أهلك، جرح مشاعرى فى أدق اللحظات الناعمة، سخريتك من سمنتى.. و تخبرنى مراراً أننى (أشخِّر) .. لن أنسى عينيك تلتهم " شريهان" فى رقصة لها فى المسرحية وأنت تقول :

ما أروع أن يمتلك الرجل إمرأة ترقص على دقات قلبه بقد نحيف ونظرت لوجهى وكأنك تنظر لقرد...

دقات على الباب.. أفقت.. هرولت نظرت من العين المسحورة :

البواب يحمل قمصانه من الكواة..

أنا أيضاً مُذنبة كم مرة طلب قميصاً جديداً واتكاسل عن شرائه أنه لايشترى لنفسه شيئاً ويعتمد على.. ويوم طلب منى بيع ربع البيت الذى أملكه لسداد دينه.. جاء ردى قاسياً :

ربع البيت أضمن لى منك !!

راتبى كنت أصرفه على نفسى أو أحتفظ به بالبنك.. أتذكر نظرته يوم مددت يدى بقائمة لمصروفات البيت وقلت له :

إضطررت لصرف مائة جنيه من جيبى.. أريدها..

كل أزماته فى العمل كنت متفرجة لا أشارك فيها وكل أفراحه أنأى بنفسى عنها !!

أعلم أنه يكره الصوت العالى.. ولا أخفض صوتى..

أشطح فى غضبى وأتجاوز أحياناً حدود الأدب وأسبه بأبشع لفظة ترك [illegible] البيت مرات بسببها.. أرهقته كثيراً.. أعترف..

هجمت عليه فى الشركة وجدته يجلس مع سكرتيرته الحسناء يضاحكها رتبت أحداث الخيانة فى ذهنى.. وقمت بطردها.. كان ينظر لى فى ذهول وفى المنزل تشاجرنا مددت يدى بلطمة على وجهه أمام الأولاد..

نظر تجاه أولاده فى إنكسار ينفطر له قلبى الآن..

الآن فقط أدركت لماذا لم ينظر لى وحمل غيظه وقهره وترك المنزل عندما حكيت لخالتى ماحدث قالت :

لاأدرى لماذا يسكت عنك.. ياأبنتى ترفقى به، على أيامنا كانت المرأة تستحى أن ترفع عينيها فى زوجها وإن كانت قليلة الحياء مثلك فعلى الأقل لاتجرؤ على رفع يديها.. ماذا حدث هل تمسكين عليه ذلة؟!..

صرخت بها.. نعم إنه خائن...

أقسمت خالتى أننى مريضة عقلياً وأن القيامة ستقوم غداً.

ياخالتى إنه استفزازى كل يوم وبعد كل مشاجرة يجلس فى الشرفة فى الظلام ويدير المسجل على " فات ا لميعاد" مثل المراهقين و...

ياه.. لماذا أذكر هذا الآن أنتهت المشاجرة وتأسفت وعاد.. حتى أننى قبلت يده ورأسه أمام الأولاد.. من منا لم يخطىء.. ألم يطلقنى بعد عام من زواجنا لولا أننى سقطت مغشياً على ولولا حماتى وبكاؤها لأجل حفيدتها الوليدة ما أعادنى لعصمته..

أنفض الذكريات عن رأسى.. اليوم بداية جديدة سأتحول لأنثى أعد له ما يحبه من طعام.. أرتب له ثيابه، استحم بالعطر وأتنشف بالنور مثل " فيروز" .. سأتحول اليوم لإمرأة كما يريد :

ألبس فستانى الأسود يدارى سمنتى حتى أرى بشأنها حلا، أترك شعرى مجنوناً يعربد فوق ظهرى، يحبه هكذا، سأضع أغلى العطور، أخضب أظافرى.. لقد أوحشنى.. هل أقبله عندما يعود.. لا سأكون طبيعية.. لكننى أشتاق لأن يضمنى لصدره، أننى أتوق لرائحته منذ سنوات لم يضمنى بحنان كنت أنام بجواره، أتحسس ظهره فى شوق إليه ولم نكن غاضبين متخاصمين، ينام يشخر.. عندما تلتف يداه حولى وأنا نائمة التفت إليه متلهفة فإذا به يغط فى النوم ولو أفاق للحظة يسحبها وكأنه ندم على فعلته...

الساعة تدق الرابعة عصرا.. لماذا تأخر ؟.. هرولت إلى التليفون لأحد بالمكتب !! لعله عند ابنته.. اللعنة !! هل كل التليفونات اليوم لاتجيب

؟.. هل خرج مع سكرتيرته الجديدة.. لن أرحمه إن فعلها.. دقات على الباب.. هرولت..

منى.. أهلا حبيبتي.. كيف حالك يا أمي «باكية» لماذا لم تتصلى بى لتخبرينى بما حدث ؟!

أرتمت على مقعد خلفها.. بينما تجمدت مكانى :

هل حدث شيء تكلمي.. بحلقت البنت ذاهلة :

هل هناك أبشع من أن يطلقك أبى ؟.. " لكن".. لعلك سعيدة... فأنت متزنة وتعيشين حياتك على ما يبدو.. وأبى المسكين يحترق لقد سافر اليوم لن يعود إلا كل عام ليرانى لماذا؟ ولماذا الآن !

أبعد مرور تلك السنوات هل انتظرتما زواجى لتفعلاها : هل تحملتما لأجلى.. أجيبى ياأمى لماذا تصمتين ؟!

دخلت حجرة نومى حملت قمصانه بين ذراعى ضممتها تشممتها لاتحمل رائحته إنها رائحة المكواة.. فتحت دولابه، ليس به ملابس، بحثت عن بيجامته، ليست موجودة كيف لم ألحظ هذا منذ الصباح ؟!

أخذ كل شيء يحمل رائحته.. حتى الرائحة بخل على بها..

ضممت القمصان لصدرى، رقدت فوق السرير.. أدرت المسجل على شريط أم كلثوم «فات الميعاد»...

نشرت بكتاب الجمهورية يونية...٢٠٠

علامات

صرير الباب يتسلل إلى أذنيها، تفتح عينيها ـ ينظر إليها بعتاب ولوم.. يدير ظهره، ينصرف عنها تنتفض من فراشها خلفه، تستوقفه.. تدير وجهه إليها.. يثور.. تنهار ابتسامتها.. تتكور داخل نفسها، تتساءل فى صوت محتضر.

ـ ماذا هنالك يا أبى.. بعد غياب تجيئنى بهذا العبوس ؟!

ـ صرت كبيرة يا إبنة عمرى.. تثورين.. تخطئين.. وتنسين.

ـ أثور نعم، أخطىء يجوز، لكن.. ماذا نسيت يا أبى ؟

ـ ما علمتك إياه : الحنان.

ـ علمتنى أطيع الزوج، أذوب، أنمحى... وينبذنى ؟!

إذا لم أكن بلا معالم تميزنى عنه، سيتوق لمن تخالفه الرأى، تشاركه الحوار.

ـ نسيت دروسى وعلاماتى على عقلك.. تصرفاتك لا تروقنى !

ـ لماذا تحاسبنى ؟ علمتنى الأمانة والبرا ءة فى غير محلها !!

= الفجر ابن الليل.. لما نخطئ ونبرر الأخطاء، لم أعلمك الهروب والضعف.

ـ لا أهرب، أحلم بطريق يختارها عقلى، أخط ملامحها بأفكارى.. أدوسها برغبتى وإن تشققت قدماى وخضبتها دماء الاختيار.

= أفيقى... الاستمرار فى الحلم يميت الحياة ؛ فلتذبحى حلمك وتعودى لما نقشته فوق صفحتك البيضاء.. عودى لزوجك.

ـ أبى.. ذراعى تؤلمنى، لا تجذبنى هكذا.

= إذاً تعالى معى هيا.

ـ لا.. لا.

= أنت هجرت الطبع الطيب وتنكرت لكل عهودى معك.

ـ لا.. لم يحدث.. إنى أتجانس مع زمنى أتعايش مع رغباتى.

= تعالى معى حيث لا كذب، لا ضياع.

ـ لا.. ستعاقبنى، ستخاصمنى، أرجوك كبرت على العقاب، فك قيودى.. أمح علاماتك من عقلى كى الحق يوم بحياتى.

أدار ظهره.. خرج مغرورق العينان.

ـ أبى.. أبى..

= فيم صراخك يا حبيبتى ؟!

ـ أمى.. أبى غاضب منى يريد عقابى لانى تركت بيت زوجى.. هل أنا مخطئة ؟!

= أنت تحلمين ؟! أبوك ميت منذ عامين.

ـ لا رأيتـه الآن يجلس هنا، يلبس بذلتـه السـوداء، جـذبنى من ذراعى انظرى أثر يديه.. لا لم يمت رأيته.

= أفيقى هو ميت.

أمعنت النظر فى أمها.. امتدت يداها، جذبت سلسلة مفاتيح، ركضت تطوى السلم ، غاصت قدماها فى التراب.. تعثرت.. قاومت.. وصلت لباب المقبرة، فتحت، دخلت، انتصبت أمام القبر الصامت الجاثم فى هيبة مكتوب فوقه (توفى يوم... سنة...) للفقيد الرحمة.. همست :

ـ هل أنت ميت ؟!

وجه آخر

أطرقت.. أغلقت جفنيَّ، تعلقت بالسحاب، كل شئ مستجاب إلا دعائى. العذاب أقطره لحظات من ونس، ها هو ذا يعود.. يلتهم افكارى من جديد كالنار، يبسط كفيه يحتوى خلجاتى، ينفض الغبار عن ذاكرتى يفتح قفص الحريم ويطلق سراحى... أقص عليه كابوسا ينتابنى فى ليالى الممتدة، أرى أن للبشر أنيابا ومخالب وعيونا تجرح عذريتى... لهم صوت يُسمع (همْ... همْ) يلهثون خلفى وأنا أركض، أطرق كل الأبواب المنغلقة... فجأة أجد قفصا حديديا مفتوحا، أدخل، يغلق بقفل ذهبى مرصع بالماس... أصرخ، يتل الشعر الصابئ حول الرقبة... أزيحه بصعوبة... أمسح حبات العرق، أرشف قطرات من ماء، أستعيذ بالله، أقرأ ما احفظه من أدعية وأغمض عينى وقلبى يدق، حتى يغفل جفنى. قالت أمى.

– بيت العدل إن شاء الله.

أذكر سخريتك منها :

– أمك تريدك فى قفص الحريم.

أمازحك :

– وتكون أنت السجان.

تهاجمنى عيناك تباغتنى يداك بقبضة تعتصر معها قلبى الملهوف..

– لن أكون سجانا لك أول لغيرك ... أعلمك الحرية. أن تكونى نفسك لا ما يرسمه لكى الآخرون، الحب لا يحتاج لقالب يتجمد به، الحب حرية وأنا حر... وأنت حرة... فلماذا مذاق الرق نرشفه نتلذذ به كأسا موروثا !!

– وماذا بعد الحب ؟

– لا شئ، نحيا، نكسر القيود، نستنشق السعادة، أرفض الحدود. فكانت كلماته تعتقل أفكارى، تروضها، فأصبح صلصالا بين يديه يصنع منه عقلا تمرح فيه معتقداته وتنمو وأروج لها بين حنايا القلب فأكون حمامة زاجلة تمارس الحرية المرسومة لها بهدف، كثيرا ما واجهته برفضى لأف كاره وشعارات الحرية المسجونة بين شفتيه. لكنى أعود أرشفها من فوقها بسعادة وقناعة.

تزوجت صديقاتى، أنجبن، وأنا أدور فى فلكه... حذرتنى أمى: فاتك قطار الزواج، لا خيار لك فلتقبلى أول طارق يأتى...كفاك عنادا يا أبنتى. أنهمك فى عملى... أروج لأفكاره... أقنع نفسى: ليس الزواج ما أبغى ولا الأولاد من يخلدون أسمى... بل عملى... نشر أفكارى...كسر قوالب الجمود ووثن التقاليد.

ضمتني أمي لصدرها :

- إن كان يحبك فليتزوجك وإن كانت إمكاناته ضعيفة... لا بأس... أيامك تنسلت هاربة... لن تعود.

همست له بما قالته أمي فجاء رده صلفا جارحا :

- تريدين بيتا واولاداً... وعلاقات تمد الحب الذى بيننا... تتحولين لامرأة عادية تصرخ طوال اليوم بطلبات وأتحول لثور يدور فى ساقية.

أمسك لساني عن الكلام، تفحصته... ضمنى تحت ذراعه، يمشى ينساب الكلام منه... يخدرنى :

- ماذا ينقصنا لنكمله بالزواج ؟! الأولاد... أنت تكفينى... الجنة

أسكته معتذرة لضرورة إنصرافى، عدت أجر خيبة أملى، مع أول عاصفة من أمى، وافقت على أول رجل طرق بابى... حملنى لقفص الزوجية، رصع يدى بأسورة ذات قفل ماسى، ضحكت أمى :

- حلمك تحقق... مبروك. حاولت نسيان الماضى لم أسع لسماع شئ عنه، تجنبت أماكن لقائنا تركت عملى وبلدى، تفرغت لزوجى، سافرت معه حاولت أن أفهم كلامه، يختلف عما يجرى فى دمى من معتقدات... لكنى أبدا لم أتلف مع وجودى فى قفص الحريم، كنت أختنق... يعذبنى حنان زوجى، تقتلنى ابتساماته، تسامحه، إغداقه علىّ... أزداد ابتعادا وإعياء حملنى لأشهر الأطباء... لا تفسير سألنى فى حنان أبوى مشفق علىّ :

– هل تريدين أطفالا ؟ تستطيعين ذلك لو خضعت لبعض العلاج لقد سألت وعرفت أنك بحاجة لتنشيط فقط... عفوا حبيبتى فى مثل سن فرصتك ضعيفة لكن ليست معدومة.

صرخت بوجهه... أريد...!! واعتقل لسانى ثقل لم أستطع النطق حاولت، فشلت، أنه ثقيل ممسك بقيود من حديد فى مؤخرته، صدرى يختنق... يضمنى فراشى... تلفظنى ضلوعى... سهام الشك فى عيون زوجى تعصف بما يحيطنى.

اقترحت أمى أن أسافر معها حتى تتحسن صحتى... رحبت بى حبات رمال الاسكندرية... تراقص الموج اللعوب لعودتى... نادتنى كل الأماكن... كى أبحث عنه، عادت أفكاره تنبض من جديد، خفقات القلب تعزف كلماته... سألت كل الشواطئ عنه، فى لحظة مجنونة كحبى ذهبت إليه فى عنوانه الذى أذكره. حذرنى من الذهاب إلى هناك فوالده رجل رجعى... عنيف... لا يهم نظرة من عينى الملهوفة ستجعله يرفق بى، طرقت الباب، انت ظرت يا لطول الانتظار... مر عمر بكامله أنتظر أن يفتح هذا الباب، جاء صوت ناعم يهمس.

– نعم من بالباب ؟.

– أ أ أنا.

فتحت سيدة تبدو ريفية رقيقة الملامح، كشفت وجهها بعد ما تأكد لها أنى امرأة... لعلها أخته... نعم هى تقاربه فى الشكل.

– عمر موجود، أنت أخته تشبهينه كثيرا... أأنا نهى زميلته فى العمل وكنا...

- تفضلي... هو ليس موجودا.

جلست حائرة... وضعت غطاء رأسها بجانبها لها شعر أسود كستائر ليل... ذكرني بطلب عمر أن أطلق لشعرى الحرية، أتركه طويلا هائما، عابثا فوق ظهرى... قطع تفكيرى صوت طفل ينادى... ماما... وهو يلتصق بها، همست أمه :

- سلم على طنط

- يشبه عمر ... لا بل هو...كم عمرك ؟

- خمس سنوات.

- لماذا لم يخبرنى عمرو عنك قبل الآن، أنت جميل جدا... ممكن أخذ قبله ؟

- حضرتك تعرفى عمر منذ متى ؟! نحن أبناء عمومة وتزوجته بعد تخرجه، أنجبت له محمود... ومنى... لكننا لانعرف أصدقاءه... له طبع خاص... لا يحب اختلاطنا كثيرا بالناس... و... نزلت كلماتها كصاعقة هشمت عظامى... لم أعد أسمع... سحابة بيضاء حجبتهم عنى... لم أنتبه إلا وهو يصطدم بى داخلا من باب بيته... نادى بصوت مندهش :

- نهى... ماذا... ماذا جاء...؟!!

حملقت فيه، استدرت، لم أسقط من طولى، لكن سؤالا سقط على رأسى كجبل...كيف عشقت هذا الرجل؟؟؟

نعيمة

احتكاك قوى، آهة تصرخ، ترسم لونا أحمر مرعوبا فوق الأسفلت الباهت هرول الناس وتحلقوا ..

مفردات الحزن تتطاير من ألسنة الناس تتوحد مع دموعهم فى نظرات جامدة.. شققت طريقى بينهم بصعوبة.. بحلقت تقهقرت.. صرختى حفرت فى صدرى حروف أسمها مخضباً بدمها (ن.ع.ى.م.ة) نعيمة.. هتف به لسانى، نظرت لمكان جلستها المفضل بين رصيفين على ناصية منزلنا، أطفال الحى يخافونها يقذفونها بالحجارة وأوراق الحلوى، تتهته بألفاظ غير مفهومة..

كنت صديقتها الوحيدة منذ الطفولة بدأت صداقتنا وأنا فى المرحلة الابتدائية.. أعود من المدرسة أنظر لها فى صمت وأنا أسير فى يدى أمى التى كانت تظننى خائفة من نعيمة لأنى أتباطأ وأنا أسير أمامها تحمينى أمى بيديها..

لاتخافى ياصغيرتى.. إنها طيبة مسكينة.. لاتقوى على المشى، تزحف على الأرض مثل طفل رضيع..

كانت نعيمة تطل من عينيها بصات غير التى توجهها لباقى الأطفال تحتوينى تبتسم فى عطف، لم أستطيع تحديد عمرها أبداً، قصيرة الشعر شعثاء لونها خمرى يميل للسمرة تلبس جلباباً رجالياً ممزق الأكمام، دائما لونه فاتح وإن كان يبدو متسخاً تجلس فوق لوح من الخشب بعجلات صغيرة، أعده لها فاعل خير، تدفع الأرض بيديها فيسير بها حيث تريد، كثيرا ما تتركه وتزحف على ركبتها مثل الأطفال فطرفاها السفليان مشلولان ضامران عن الحركة منذ طفولتها التى توقفت عند سن الثامنة وتوقف عقلها كذلك...

تجلس نعيمة من الصباح إلى قبيل المغرب وترحل لاندرى أين تنام..

كنت أنظر فى عينيها والأطفال يلقونها بما فى أيديهم ترسم على وجهها تعبيرات تنطق بما تعانيه من ذعر ورعب تخفى وجهها أحياناً وأحياناً أجدها ترد عليهم بكلمات مكسورة مشروخة متناثرة تخيفهم، تركض خلفهم زحفاً تضحك ملء الدنيا وهى منتصرة عليهم تنظر لأعلى إلى شرفتى التى أرقبها منها وتشير بتحية عسكرية تبدو كمن أدى مهمته.. ثم تعود.. يوما كنت عائدة من المدرسة والتف حولى بعض الصبية يريدون ضربى لأنى لا ألهو معهم بتلك المسكينة.. التصقت بالحائط أبكى فلا حيلة لى حتى سمعنا صوتها يهرول ناحيتنا تصرخ فيهم بجملها المكسورة غير المفهومة..

هربوا تاركين حقائبهم التى أخذت تقذف بها بعيداً كأنها ترد عليهم حجارتهم...

كـانت تلهث كـمن يركض فى سبـاق عـدو طويل، ثم نظرت هادئة لوجهى المرعوب وربتت فوق يدى قائلة : (غول) أشارت إليهم مكررة (غول) ..(نار • • نار) ثم أخذت تمثل لى كيف أن النار تخرج من عيونهم، ألسنتهم طويلة مثل السكين تقطع الرقبة !! أشياء كثيرة لم أفهمها فى وقتها.. مددت لها يدى بكيس من الحلوى فأخذته سعيدة وكانت لاتأخذ شيئاً من أحد حتى الطعام الذى يضعه لها أهالى الحى كانت تطعمه للقطط من حولها..

تأكدت الصداقة بيننا بالنظرات والبسمات.. وقفت يوما أشترى بعض الحلوى من دكان تحت منزلنا ونسيت حقيبتى المدرسية وبعد أن صعدت للمنزل ومر الوقت.. اكتشفت ضياعها.. ارتعبت، قفزت الدرج، هرولت للدكان، كان مغلقا.. عدت أجر أحز انى خائفة من تأنيب والدى.. وجدتها تركض لاهثة باللوح الخشبى خلفى سمعت صوته على الأرض.. التفتت.. رافعة يديها بحقيبتى..

هل وجدتها ؟

أومأت لى ضاحكة.. نظرت لها فى شكر وإمتنان..•

لاأنسى نظرتها لى، كان الليل قد جن ولعلها المرة الوحيدة التى تتأخر فيها نعيمة عن رحيلها.. كانت كالشمس تأتى مع البكور•• وترحل المغرب ولكنها أطالت الإشراق على حيناً من أجلى.. مرت سنواتى الأولى.. أكبر وصديقتى لاتكبر فى عينى أبداً.. كان حوارنا صامتا•• دائما سنوات من عمرينا•• وجاء يوم رحيلنا عن الحى كان يوما غريباً لاأنساه :

السيارة تحمل أغراضنا.. أحمالنا.. ألملم عرائسى ومنمنماتى الصغيرة من فوق جدران حينا، ذكرياتى، طفولتى الجميلة مع رفيقاتى.. تعديت سن الثالثة عشرة عندما هجرنا هذا الحى لبلد بعيد، كنت أشعر كأنهم ينزعوننى من جذورى.. الألم يعتصر قلبى.. ساقاى تترنحان فى خطوات بطيئة .. أمشى مطأطأة الرأس أجدها أمامى دموعها متحجرة نظرتها تطرح الكثير من الأسئلة : لماذا الرحيل ؟ وأين ؟ هل تعودين ؟ هل اراك مرة أخرى ؟ هل... وهل ؟

تأملتها ودموعى تتساقط فوق وجهى، فرت دمعة وسقطت على يديها قَبلتْ يديها.. أخرجت ورقة مجلة من طيات ثيابها فيها صورة حمامة بيضاء، أشارت إلى بأصبعها ثم إلى الحمامة..

أنا بعينها هذا الطائر الجميل.. قالت أنها ستحتفظ بها حتى تراها كلما اشتاقت إلى.. وضعتها فى ملابسها كجوهرة ثمينة.. ركعتُ على ركبتى.. ضممتها لصدرى : سأعود يانعيمة لكن لاأعرف متى سيكون هذا ؟

تركتها ورحلت، كانت السيارة تطوى الطريق وصورة نعيمة وهى تركض خلف السيارة بلوحها الخشبى تدخل فى إطار داخل ذاكرتى، كنت أسأل عنها رفيقتى فى خطاباتنا وتؤكد وجودها.. كثيرا ما تذكرت رقتها.. فهمت خوفها من الصبيان وهم يلقونها بالحجارة، فهمت معنى كلمة «غول» و«نار» كانت تخالهم غيلانا تخرج من أفواههم ناراً وتدافع عن نفسها ٠

اليوم عدت لزيارة رفيقتى الوحيدة.. جمعتنى بها الحياة فى الجامعة واستمرت الصادقة٠٠ كانت تقص على أن نعيمة مازالت تجلس نفس الجلسة، مازالت تركض خلف الأطفال الأشقياء.

صديقتى تتعجب من حبى لنعيمة وتذكرى الدائم لها..

لبيت دعوة صديقتى.. ودعوة نعيمة لى منذ عشر سنوات أن أعود لزيارتها.. نعيمة، تراها تذكرنى ؟ وجدتنى أردد الاسم وأنا أصرخ باكية، أشتاق لرؤياها.. نظرت مرة أخرى إليها وهى مغطاة بورق الصحف فى إنتظار أن تحملها سيارة الإسعاف التى كان صوتها يبتعد ودقات قلبى تعلو صارخة، وشريط أسود يوضع على الإطار الذى يحمل صورة نعيمة فى ذاكرتى...

نشرت بمجلة القصة سبتمبر..٢٠ العدد ١٠١

غيرة

دقات على بابي.. هرعت للباب، دخلت، صرخت :

عليه أن يطلقني هذا (البصباص) لا أمان للرجال، صدقت أمي (الرجال كالماء في الغربال)..٠

جلست أشعلت سيجارتها ظلت تنفث غيظها.. نظرت إلى مازلت صامتةً أنتظر.. قفز الكلام على شفتيها مجدداً..

اليوم ضبطته متلبساً..كنت أعد له قدحا من القهوة ليحتسيه وإذا بهذا (الحاسوب) ينطق:

اسمي كيت «باللغة الانجليزية»، صحت فيه ممازحة، حتى الجهاز الآلي أنثى.. لماذا لايكون ذكراً؟!

لماذا كل شيء تريده أنثى.. «فصاح بوجهي» كبركان:

= أنت تغارين من كل أنثى حتى وإن كانت شجرة.. لو أشعلت لفافة تبغ أودخنت النارجيلة، تصرخين : لأنها مؤنث، لم أعد أدخن إلا السيجار..

– لأنك تحب النساء.. وتاء التأنيث.. ونون النسوة.. والتاء المربوطة والمفكوكة والمنفلتة، أنت (بصاص) بالوراثة.. طلقني.. طلقني..

= أخلعيني إن أردت !!

ظللت واجمة مبتسمة أنتظر نهاية لملحة صديقتي الغيور..

تذكرتها يوم حنقت على من أطلقوا اسم(بدلة، كرافتة، جذمة، منامة، أو بيجامة) على بعض أغراض الرجال.. ضحكت.. علت ضحكتي.. نظرت صديقتي وكأنني أرتكبت جريمة بشعة..

– أنت لاتشعرين بما أعاني.. تضحكين.. تسخرين.. ياقاسية!!

أنت طفلة بلهاء تسكب اللبن لآن أصابعها الرقيقة لم تنله.. الغيرة شعور انساني لو عرفنا السيطرة عليه لما وقعنا تحت حبائله.. إنها تغير طبيعي يحدث للنساء والرجال مثل ما يحدث عندما يهاجم «فيروس» جهاز المناعة بالجسد فيستعد لمهاجمته، قد يتبعه ارتفاع في درجات الحرارة، رجفة.. إعياء، المرأة عندما تستشعر الخطر على رجلها ينتابها هذا الشعور إذا كانت تحبه..

تأملتني صديقتي وهي تعتدل في جلستها :

وأنت يا سليلة الحكماء ألا تغارين.. على زوجك أم تغلبت على «فيروس» النساء العضال؟!

أنا أثق فى نفسى وقدراتى.. لا أدمر، الحلول المنطقية لم تّعدم

حملت حقيبة يديها إنصرفت لمنزلها دون وداع..

لم أتصل بها.. نسيتها..

رنين الهاتف ذكرنى بها..

نعم.. مساء الخير. .

كيف حالك ؟

أنا سعيدة لاتصالك، أين كنت طوال أسابيع ؟

ـ طّلقت..٠

كيف ؟!

ـ لايهم.. سمعت أن.. "صمتت" إستطردت، زوجك اليوم فى السينما مع إمرأة أخرى تعرفينها.. إليك العنوان.. العرض ينتهى فى الثانية عشرة مساء

ضحكتُ مستنكرة

– لا أمزح

ابتلعت طعماً مراً خرج صو تى مذبوحاً.. من قال لك ؟ ! لعلها!! ألقيت السماعة دون تحية، خطفت ثوباً من خزانة الملابس أدركت فيما بعد أن لونه أحمر.. كبست الحذاء بقدمى وكان لونه أحمر٠٠ ركبت سيارتى الحمراء التى إشتراها لى (زوجى) لا٠٠ الخائن.. لم توقفنى

الإشارات الحمراء إقتحمتها، وصلت إلى السينما.. رأيته يخرج متأبطاً ذراع إمراة.. دققت النظر٠٠ أدرت مفتاح السيارة ضغطت بكل قوتى على دواسة البنزين.. تذكرت جهاز المناعة ومهاجمته للفيروس، تدفق الدم فى عروقى، احترقت كإحتراق لفافة التبغ التى أحرقتها يوم٠٠ جاءتنى تعصف ببيتها، فى لحظة أطاحت سيارتى بشىء لم أنظر خلفى٠٠

هدأت.. عدت للمنزل، نظرت فى المرآة، أرتدى ملابسى الحمراء، رفعت الهاتف أدرت القرص..

....

قتلت زوجى وصديقتى..

....

نعم أنا فى انتظاركم..

....

أعتقد أنهما ماتا..

....

لا لم أنتظر.. فشلت فى فلسفة هذا الموقف، أنا جاهزة

غلطة

لم أكن أدرى أنه سيأتى يوم تخط يدى تلك الكلمات، أجمع بيدى حروفاً تقص عليك أنت دون كل البشر قصة جريمتى فى حقك.. أطلب عفوك، أن تفتح لى قلبك، واسمعنى يا أغلى الناس .

الحب ينقر فى قلبى كعصفور، يدق دقات خافته، لحظات السرقة التى يشعر بها العاشقون، كانت عمراً أعيشه مع أبيك، التقيت بوالدك – ولم يكن غريباً على – كان لقاء عشق منذ اللحظة الأولى.

تزوجت ككل البشر بورقة رسمية، وعشت مع من اختاروه لى حياة لا أدعى أنها قاسية بل فيها حنان أبوى، وعندما أنجبت له أخاك الأكبر سعد به ووضعنى فى صندوق ذكرياته أحلم بالحب.. لم يتغير شئ بيت والدى كبيت زوجى، داعبت فيه الزوج فأبى، حتى التقيت بأبيك.. قلبى يخفق له وكرامتى تأباه وكبريائى يكتم صوته.. كنت ألوذ بزوجى، أجده فى عالمه بعيداً عنى قريباً من إبنه لا يعترف بأنوثة تصرخ بداخلى .

والدك يقترب من نفس تتجسد بالتدريج معانى حياتى كلها فيه .

دخوله لمنزلنا أمر يسير كصديق لزوجى .

فى ومضة عشق ذابت الأجساد وتعرت القلوب.. شعرت بك بين أحشائى حاولت الخلاص لم أقو على إجهاضك، فشلت محاولة انتحارى، فكرت هل تحمل اسم رجل غريب عليك، لم ينكرك أبوك، طالبنى بالانفصال عن زوجى لكننى انقسمت يا ولدى على صخرة صلده أقسى من لحظات الخيانة .

كيف أنزع أخاك من زوجى وهو الذى يستنشقه ليحيا .

قبلت هذا العفن ولم أنفصل، كلما انفردت بنفسى أقسم ألا أعود.. وتدعونى نظرته فأذوب قلباً، جسداً، عقلاً .

أصبحت كأرض شراقى تطلب الرى ولا ترتوى.. كالسراب خلاصى من حب أبيك، زوجى يبتعد ووالدك يقترب، الأعذار فى عقلى كخيوط العنكبوت .

عطف زوجى عليك وسعادته بك تقتلنى، كلماتك الأولى (بابا) تمزقنى، زوجى يقهقه لسماعها ويسعد.. يهتف :

– نطق (بابا) قبل (ماما) .. أولادى من صلبى .

تنطلق الكلمة كلكمة قوية فى وجهى.. قال يوماً :

– سأكتب ما أملك للولدين مناصفة.. ولك هذا المنزل .

ـ قفزت مذعورة.. لا.. لا تفعل اترك كل شئ للزمن . أقسمت بكيت.

أردت أن أخلص ضميرى سطرت لك رسالتى تلك لعلك........

(رنين مستمر من الهاتف..)

ـ نعم أنا بخير يا حبيبى نلتقى أين.. ولكن.. لعلى.. أرجوك لا

ـ اسمعنى فقط.. بعد ساعة سأكون هناك..

أنه أبوك.. سأرتمى فوق صدره باكية.. ككل مرة أقسمت فيها ألا أعود.. وعدت ـ لكن الرسالة ـ لا لن أحطم معبدى.. سألقى ببقايا عمرى وقصاصات رسالتى تحت قدميه.. سأعود لأستمع لأغانى الخيانة وأبكى، أشاهد روايات الخديعة وأبكى، أسمع صفعات الشرفاء على وجهى وأبكى.. لكنى إليه اشتقت.. أشتقت...

البنت

فى قصعة تكتل فيها الجمر، وضعت حبات الذرة، تمروح فوقها وهى تغنى لاجتذاب الأطفال، أطلت جدتى من شرفتها، حدقت فيها، هرولت إلى خالى قالت :

– أعطنى خمسة قروش أشترى «كوز ذرة»

= ياأمى ليس هناك ذرة بخمسة قروش، خذى خمسين قرشا، هبطت درجات السلم، جذبت البوابة الحديدية، استعصت عليها لكنها كانت أكثر عناداً، دلفت حيث بائعة الذرة، نقدتها المبلغ، حملت كوز الذرة وهى تكاد تتقافز من السعادة، امتطت السلم دخلت على خالى، حدجها بنظرة غريبة :

– لمن الذرة ياماما، ليس لديك أسنان !!

= للـ.. للـــ .. للبنت !

التفت تجدتى لم تجد أحداً، القت بالذرة، دخلت إلى الحمام توضأت وعادت تصلى جالسة قد أتعبها هبوط السلم وصعوده، وضعت قبضتها تحت ذقنها وعادت إلى سرحانها...

اقترب منها خالى، ربت فوق كتفها..

- أى بنت ؟

= التى كانت هنا..

جا ءنا خالى قلقا على جدتى، ترى أشخاصاً غير مو جودين..

أقمت لدى جدتى فترة، كانت سعيدة تحدثنى عن الماضى وأخوالى الذين رحلوا عن دنياها، وخير جدى الكثير، عزبتهم، أراضيهم، الثورة والملك، كيف كان أهلوهم يخافون عليهم من عساكر الانجليز فكان الخروج من المنازل مستحيلا...

فيجلبون الخارج للداخل : سينما، مصورين، مطربين، ممثلين...

حكت كيف أقام لها أبوها فرحاً سبع ليال متصلة، فى كل يوم طقوس جميلة، واليوم السابع، يوم الزفاف، أرتدت سبعة فساتين آخرها اللون الأبيض والطرحة، التل التى شغلتها بنفسها وطرزتها بفصوص قليلة من الماس الحر.. صاغته بعد ذلك أسورة . . قفزت برشاقة وخفة بنت السادسة عشرة فتحت صندوقها المخبأ بعناية فى دولابها، وأخرجتها، نظرت إليها..

- احترت لمن أهديها، أنجبت خمس بنات وأربعة صبيان، بعد موتى يأخذونها.. لا... خذيها أنت يوم فرحك..

= ولكنى تزوجت ياجدتى...

– هه.. كيف حال زوجك.. يريدون حبسى ، يريدون موتى.. خوى المنزل إلا من خالك، لماذا لايتزوج ؟ كى أطمئن عليه قبل....

إن شاء الله تسعدى بأولاده..

أردت الخروج من ذكرياتها الحزينة، خوفها من ذكر الموت...

= أشترى لك أيس كريم ياجدة ؟

– كان نفسى آكل ذرة خالك لم يرض..

تغضن وجهها، أشاحت بيديها..

– قا ل لى : ليس لديك أسنان..

نفسى فى الذرة، والخبز المقدد مع قطعة جبن وخياره.. أريد قصبا أمصه..

أوجعتنى بسمة جدتى وهى تتمنى أشياء بسيطة.. قمت متحفزة للزمن الذى يسلبنا أشياءنا الصغيرة، فتحت دولابها، أخرجت لها فستاناً أسود، فما زالت تتشح بالسواد على من رحلوا..

عدت إليها وجدتها تفتح صندوقاً ظننته لسنوات ديكورا بالمنزل لم يجرؤ أحد على فتحه.. أخرجت منه طربوشا وعصاه...

هتفت والفرحة تنداح على ملامح وجهها، تخضبه بلون الحياة :

– طربوش جدك.. ابتسمت لها..

= ياجدتى.. العتة فتكت بما فى الصندوق..

رمقتنى، أدخلتهما و أغلقت الصندوق، دفست المفتاح فى صدرها

زمان كان الناس فيها خير، تود بعضها، تتحدث كثيرا...

الآن لم يعد لديكم رغبة فى الكلام.. حولكم أشياء كثيرة تتحدث.. «المخروب التلفزيون» دش، سينما فى كل متر...

راح الود والكلام والسؤال.. تركت الصندوق همست لها، هيا نخرج، صاحت..

– بجد أشوف الشارع والناس، أنت ابنتى الحبيبة الغالية.. والبيت.. ممكن يأتى حرامى.. لا.. خلاص، خلينى..

= ياجدتى سنغلق البوابة لاتخافى، لن نتأخر..

خرجنا، طوفنا الشوارع، كانت الدهشة ترسم الكثير من علامات الاستفهام لأسئلة وئدت داخلها، القلق يعتصر نظرتها وبسمة معلقة كأنها التقطت لها فى لحظة وجمدت على شفاة ضمرت وجذبتها التجاعيد للاستقرار هكذا.. همست : اريد الرجوع...

عدنا للمنزل.. حملت بعض أمانى الجدة فى جعبتى، قمت بسلق الذرة ووضعت فوقها القليل من الزبد وقدمته لها فتمكنت من أكله، قدمت لها القصب مقطعا لشرائح رقيقة كوريقات الشجر، عضعضت عليه «بالضراضير» كطفلة فى مرحلة التسنين، فرغت، ضمتنى لصدرها أغتسلت وتوضأت وهمت تصلى سألتها :

– من هى البنت التى طالبتك بالذرة ؟

= من تؤنس وحدتى وتسمع حكاياتى، وتذكرنى بمن رحلوا...

حكم الشايب

تعانقت الضحكات مع الهتافات المدوية :

ترقص...

تغنى ...

تشترى من البقال بقرش صاغ حلاوة..

عندها لمعت الفكرة برأس محسن..

– لا.. بل تطرق باب الجيران وتزعم أنها تطلب المبيت عندهم.

نظرت إليهم، انداحت الابتسامة تكسو ملامحها الرقيقة الوضاءة

= هل تعرفون، كم الساعة ؟ ! العاشرة مساء.. أنتم مجانين..

علت الأصوات هيا... هيا...

خرجت، طرقت الباب المقابل، فُتح الباب عن رجل وسيم تخطى العقد الرابع، ارتبكت مندهشة !!

عمر ...!!

فى ذهول تنحى الرجل، فدخلت مترددة، تحشرج صوتها :

= هل والدتك موجودة ؟

- لا...

انتفضت مستأذنة فى الإنصراف، رمقها بنظرة تعجب واستنكار شديد :

- ممكن أفهم أى حاجة ؟

= أنا آسفة أزعجتك أصل الحكا......

طرقٌ على الباب وضحكاتٌ ونداء.. «ميرام..ميرام» كفى تعالى فتح الباب.. تحول وجهه لعلامة استفهام كبرى أمام لهوهم، أعاد النظر لوجه ميرام :

- ماذا يحدث ؟

= بنلعب «الشايب» وكان حكمهم على، أن أطلب المبيت عندكم.. لم أعرف بعودتك، ظننت الوالدة بمفردها، متى...

انتزع من وجهه ابتسامة وهو يتفرس ملامحها الدقيقة :

- جميل أن الوالدة ليست موجودة وإلا وقعت أزمة.. فهى لاتعترف بالكوتشينة ولا ألعابها، حاولت أن أشرح لها أن الكوتشينة ليست كلها

قماراً، والشايب مثلا لعبة تقوم على المرح لما فيها من أحكام ظريفة ومواقف مضحكة.. لم تقتنع..

= هل تنضم إلينا فأنت وحيد الليلة..

رحب الجميع به فقد تقبل هذا المزاح الثقيل..

هتف أحدهم :

– استراحة وبعدها نستأنف اللعب...

كان عمر يشعل سيجارته، ويتتبع بعينيه دخانها وهو يصعد ويهبط فوق مساحات الضوء الأبيض فى عينى جارته الحسناء.. امتلأ جسدها البض، وقتما تزوجت كانت أصغر فتاة فى العمارة، فاتنة، شدته من أفكاره وهو سارح :

= تشرب شاى ؟

تناول منها القدح الساخن متسائلا :

– كيف حال الأسرة ؟

= لم يبق غير أمى، سافرت لقضاء عمرة المولد النبوى.. تزوجت معها كما ترى.. لم أكن لأتركها بمفردها بعد زواج إخوتى.. وأنت؟

– لم أتزوج.. الحياة خارج مصر تسرق العمر، عدت منذ يومين، الوالدة تجلس عند أختى التى أنجبت أمس ولداً جميلا..

= مبروك...

– هل لديك أطفال ؟

أطرقت :

– لا... هيا ننضم للعبة، هل مازلت تذكرها أم الألعاب الأوربية أنستك؟ سنفرق الورق بالتساوى، ثم تخرج كل ورقتين متشابهتين وتضعهما فوق الطاولة، ثم نسحب من بعض حتى يبقى الشايب مع أحدنا..

ضحكت ابتهال :

– طول عمرى أسأل لماذا الشايب، لو كان ولداً، كنت احتفظت به على طول !!

همس محسن :

– ليتنى الولد ولو فى الكوتشينة !!

لكزها زوجها سعد فى كتفها وهو ينظر بغيظ تجاه محسن :

– أحتشمى.. وأنا أطلع إيه...

= بين الأثنين.. لاولد.. ولاشايب...

استأنفوا اللعبة.. صاح الجميع :

الشايب مع ابتهال.. والملك محسن...

صاحت :

– ترفقوا بى ...

ضحك محسن :

= تنزل تشترى لى قطعة بطيخ..

- لا.. الساعة اقتربت من الثانية عشرة ليس معقولا..

محسن مقاطعا :

= لاتراجع فى الأحكام وإلا لن يلعب الممتنع ثانية معنا، هيا لااعتراض على حكمى التالى، تحضرين ماءً ساخناً لأضع فيه قدمى، وتقفين مثل الجوارى فوق رأسى.

- ياسخيف لا.. لن أفعل...

مجبرة نفذت ما طُلّب منها.. استأنفوا اللعبة والأحكام تتوالى، وفى كل مرة يصيح محسن :

لاتراجع...

هذه المرة صاحت ابتهال :

مرة ثانية الشايب من حظ ميرام، وسعد هو الملك

ارتكز سعد على مرفقيه قائلا :

= ساندوتش مربة سفرجل فى خبز طازج من الفرن حالاً

- ماذا ؟! لاياسعد يجب أن تطلب شيئاً منطقياً

همس عمر فى أذن سعد فهتف ضاحكا :

= إذاً ترقصين لى وحدى..

هتف محسن ساخطاً :

– لاداعى لمزاح ثقيل، فلترقص أمامنا جميعاً

= لا... أمامى وحدى..

– على الطلاق..لن تفعل..

صرخت ميرام :

محسن هل جننت ؟!

انتفخ سعد بإصرار :

= على الطلاق سوف تفعل.. أنا الملك..

ارتخى عمر فوق مقعده.. من حقك، لقد نفذ حكمه فى زوجتك علا صوت ابتهال :

ماذا جرى لكم.. هل اسكركم كوب الشاى ؟!

تراجعت ميرام، التصقت بعمود يتنصف الحجرة الواسعة، نظرت تجاه عمر وأحمرت وجنتاها، شعر بحبها يعاود الاستقرار بين أضلعه، كحمامة عادت من رحلة فى السماء الواسعة، لكنها تعرف عشها، تحول الضحك لأصرار على مبدأ أن الأحكام لاترد، صار الحوار لغطاً، كانت عين ميرام تبدو كأنها تستنجد بعمر...

– ومضت الفكرة برأسه.. هتف دون شعور منه :

ما رأيكم لو نتحاور بهدوء.. إنها لعبة ؟

– صمت الجميع ينتظرون.. تحدث عمر بهدوء :

– سعد الملك وأقسم ألا يتنازل، ومحسن أقسم بالطلاق،ألا ترقص، وأنت ياميرام ما رأيك فأنت المحكوم عليك ؟ أتسعت عينا ميرام وهى تنظر لمحسن، كان داخلها يتصدع، كيف وضع زوجها حياتها معه رهنا للعبة.. القت عينيها وحوارها الصامت بين يدى عمر، وجم الجميع بينما تحدث عمر بهدوء الآمر :

– يحتفظ سعد بحقه فى الحكم، ونقوم بلعب دوراً آخر، وإذا وقع الشايب على محسن أو ميرام فلا مفر من الرقص لسعد بمفرده، أو.... الطلاق.

صرخت ميرام :

= لاتنتهى اللعبة وكفى.

نظر عمر لمحسن.. هل تشك فى قدرا تك على الكسب ؟

هتف محسن :

– لا.. رضيت بالحكم لشقتى فى الفوز، وعليك يا ميرام بالحذر فى اللعب، أما أنا فلن أخسر.. لن أخسر..

وزع الورق، بدأ الضوء شاحباً، القلوب متوجسة، العقول مترنحة من الخوف.. نظرات ميرام تتصارع مع أوراق الكوتشينة، تغير لون البشرة الوردى للون الثلجى، مرت الدقائق وئيدة، كان كل منهم يحمل رأس شايب فوق

كتفيه، مرتبكون، خائفون، أوراقهم تكاد تكون مكشوفة لرأس واحد انداحت معالم الرضا فوق وجهه فقد كان عمر الملك، رغم أنه لم يفوز ولامرة بهذا اللقب منذ بدء اللعبة، كان يلعب معهم لعبته معتمدا على ارتباك اللحظة، تململت ابتهال :

– هذا الدور طويل وبطيء..

كان الكل حذراً، العقول تمتد لسحب الورق قبل الأيادى وهى لاتعى غير الرعب، بعد مرور الوقت خرجت ابتهال من اللعبة، تلتها ميرام التى تنفست قليلا من الراحة، خاصة عند خروج سعد، هذب محسن شاربه فرحا، لم يبق غير محسن وعمر يتبادلان الورق، فى لحظة طويلة سلم عمر آخر ورقة لمحسن، تجمدت النظرات فوق ورقة الكوتشينة، كان الشايب يبتسم، يسخر منهم، تعلقت عينا ميرام بعمر :

عليك بتنفيذ الحكم يا ميرام..

صاح محسن :

لا.. أقسمت بالطلاق..

ترنحت ميرام، سقطت فوق المقعد..

= لن أرقص لأحد..

يحلق الجميع فى ميرام.. توسلت ابتهال لزوجها أن يتنازل، فالأمر لايعدو لعبة :

كيف يتطور بنا الحال حتى نخرب بيتاً ؟

قال عمر :

– لامجال للتراجع، محسن من فعل هذا.. عليه أن يتحمل والامر أصبح به طلاقان، أنسيت.. سعد أقسم هو الآخر بالطلاق..

لطمت ابتهال وجهها وكأنها لم تسمع قسم زوجها منذ قليل فجاء مفاجأة لها :

على إحدانا أن تطلق الليلة.. ليلة سوداء، منك لله ياسعد، ماذا أقول للعيال، أبوكم طلقني فى لعبة !!

قامت ميرام متكئة على كتف عمر، صلبت طولها، اتجهت نحو الشرفة تتنفس.. وتنفرد بنفسها...

هتفت ابتهال كمن وجدت الحل :

نسأل شيخا :

عمر ساخراً :

ماذا تقولين له ؟... زوجى....

صرخت ميرام :

كفى... سأرقص.

قفزت ابتهال ناحيتها :

تضحين لأجلى أنا وأولادى ليس حلاً

– سأرقص... لعمر وحده..

صاح محسن أقسمت ألا... ثم الحكم لم يكن لعمر، بل لسعد

– عمر هو الملك وسأرقص له.. ألم تفهم بعد يامحسن، لم يكن حكم الشايب.. إنه حكم الطلاق.. لم يكن حكمك ياسعد...

بل حكم عمر، اتجهت، أدارت الموسيقى، جذبت عمر من يديه أجلسته، نظرت لهم مخاطبة :

لتغمضوا عيونكم، أو تخرجوا .

سلمى..

بوجه تشرب سمرة، وصفين من الرموش كسوسنات ناعسة، وشعر تهدل بقصه على جبين عريض وقصع الباقى منه فى ذيل حصان صغير وذقن دقيق يتناغم همسا مع الشفاة التى رسمت معالمها كقبلة ملاك حالم وضع هذا القد الطرى فى لباس بحر برتقالى.. كأنها شمس ترسل وهجها، أخذتنى وهى تجلس فوق الرمال، تجمعها بجاروف أحمر، تسقيها بالرشاش، تحفر وتحفر تجمع أكبر قدر من الرمال، تضيف إليه الماء بغزارة فينساب عائدا إلى البحر، تزفر فى ضيق، تضرب الأرض، تتطاير حبات الرمل لعينيها فى حركة سريعة تدعك عينيها بيدين خضبتا بالرمال، تصرخ غاضبة تلقى بالجاروف والدلو والشوكة فى المياه.. هرولت الأم إلى الصغيرة نظفت وجهها بالماء، أجلستها فوق المقعد، نفحتها الطفلة بسمة من جعبة مكرها وهى تمد اليد لتلتهم قطعة البسكويت وتدلف من بين يدى

أمها فى حركة التوائية.. تجرى صوب البحر.. و قلبى يلهث خلف نداوة ضحكتها ذكرتنى بحكايات والدتى عن خوفى من البحر، صرخاتى :

(بحر لا يابابا) ..

علت البسمة وجهى من ذكرياتى.. رمقتنى بنظرة خاطفة، وجدتنى أمعن النظر إليها، إزداد تورد وجنتيها واستدارت، باغتتنى وهى تقترب تتودد، عادة الأطفال النفور والابتعاد، أماهى فلا...

إنها تملك ملامح من طفولتى الغضة.. همست لها :

– ماأسمك؟..

= سلمى...

= و...أنت؟

– هالة...

– تلعبى معى؟

= ماذا نعلب؟

– نعمل بيت للعصفورة..

صفعتنى الصغيرة بكلماتها، ضاق صدرى، تبخرت أنفاسى، كم من مرة حاولت تحطيم قيودى، هزتنى بأصابع رقيقة كومضات الضوء، أفقت :

– العصفورة تحب الحرية والسماء ياسلمى..

= بيت للسمكة!

- السمكة تحب الماء.. تموت إن خرجت تتحول لطعام نأكله...

أونزين به منازلنا.. كما صرت أنا...

هل تحبين السمك ياسلمى؟

= لا...

- بيت لسلمى وهالة.. ما رأيك؟

= وتنامين معى؟

كم تمنيت أن يضم فراشى البارد جسدا طريا، يوقظنى عدة مرات، للماء، الحمام، وينادى.. ماما، ضممتها لصدرى.. بدأنا نحفر، تحمل لى الماء وأشيد منزلا، بسور وحديقة.. ضحكت سلمى فتمدد البحر، ثم انحسرت أمواجه سريعا قبل أن تدرك بيتنا الجديد، ضمتنى عيناها، كتبت سلمى وهالة اسم لبيتنا الجميل، عنوانه كل الشواطىء، سألتنى سلمى :

كيف ندخل البيت؟!

دققت النظر وجدت.. لاباب، لاشباك، أشبه بسجن زرعت نفسى فيه.. لأنى عاقر، سمكة للزينة، أنقبضت :

كيف أنسى...

ضحكت سلمى فعاود البحر تمدده، ظلت تضحك وهو يتمدد، سحبت الأمواج أسمى من فوق الر مال، هدمت الأسوار، انحسرت، نظرت مكانها فإذا باسم سلمى مازال منقوشا فوق الرمال .

تذكرت والدى يوم بنى لى بيتا مثل هذا ونقش أسمه بجوارى، ابتلعه البحر.. هل..؟!

سلمى، سلمى.. نظرت خلفى، الأم تقترب بالمناشف تحملها وتنصرف وهى تنظر من فوق كتف الأم، تودعنى بابتسامة ذابلة وأجفان متثاقلة.. ابتعدت وظللت جالسة فوق الرمال، والموج ينحسر عن قدمى، عن بيتى المتهدم ، يذهب بعيدا يلثم أشعة الشمس البرتقالية، لكن آثار خطوات سلمى مازالت منقوشة فوق الرمال...

نشرت بجريدة المساء أكتوبر ٢٠٠٠

رحيل البنفسج

من غرفتى إلى غرفة المعيشة إلى شرفتها الواسعة، تراصت أصص الزهور، أتحسسها بيدى أعيد ترتيبها، أداعب عود الياسمين الصغير وهو يشب ليقبل السماء، ابتسامات الريحان وشقاوة القرنفل، أسقيها.. أمسح بأطراف أصابعى صفرة أوراقها.. لا تمسح.. أبحث عن إصيص البنفسج.. أرى شظاياه أسفل الشرفة.

هرولت إليه حملت شذرات البنفسج.. مازال يتنفس.. وضعته فى كوب ماء أنأمله أداعبه.. أهدئ من روعه. تغيب ملامح الشرفة من عينى.. أسمع صوت حكاياتى.

كنا صغاراً تحتوينا الفرحة تضمنا وقلت أنى أحب زهر البنفسج، سألتنى عيون بر اءتك لم البنفسج ؟!

أذكر يوم أمطرت، رفعت حقيبتك فوق رأسك رجريت تسبقنى، خبأت حقيبتى فى (مريلتى) احتميت بمدخل أحد الأبنية، كفكفت السماء أمطارها، عدت وبيديك الغضتين مسحت وجهى :

ـ هل تحبين المطر ؟

= نعم.. وزهر البنفسج.

ـ (ضاحكاً) البنات تحب الفل.

مشينا نحمل أعوامنا العشرة، تدحرج لى (دبشة) أعيدها إليك، نشترى الأيس كريم تذيقنى وأذيقك.. قلت لك :

= سأصبح طبيبة.

قلت لى :

ـ وأنا.. كعمى المهاجر.

هبطت عصفورة صغيرة على إصيص الفل.. تنبهت لها، مددت يدى، طارت بعيداً.. بعيداً.. لم أعد أراها.. وطرت معها فى الغيم هنالك.. صرنا الآن شباباً رسمتنى أنثى تتربع فى قلبك رسمتك رجلاً يحتوى كل مشاعرى.

نتسابق فوق الرمال.. تقول :

ـ حلمنا أجمل من أفلام الغرام..

= احلم بالأطفال.. وبالطو الطبيبة الأبيض، تهمس فى أذنى :

ـ أغار عليك من المرضى.

أنسلت هاربة من بين عينيك :

= سأطبب أطفالاً.

ـ أنا سأصبح.. رجل أعمال، سألعب بالمال كعمى فى أمريكا.

= وأنا.. ؟!

ـ فوق الأحلام.

وأخذتنى فى قبلة ما ذقت يوماً مثلها فى كل احلامى معك، وسألتنى:

ـ مازلت تهوين البنفسج؟

هززت رأسى.. أهديتنى إصيص زهر البنفسج.. أرويه، يكبر لبيتنا..

تهبط العصفورة الصغيرة.. أمد يدى إليها..

أصابعى تسيل منها عصارة البنفسج وبقايا أوراقها الصريعة بين أناملى.. تطير العصفورة بعيداً بعيداً.. ناحية الغرب.. أردد مع نفسى : لن تعود هذه المرة..

عشق.. فقط

أهرب من عينيك، فيهما غضاضة طفولتى، تحاورانى صامتتين بمخبوئهما.. أراوغهما..

زئر نساء أنت.. تقهرنى الآن فى معركتنا، بأسلحتك القديمة المستهلكة على صدور الفتيات.

الخفقة الزائدة بقلبى لم أكن أجد لها تفسيرا إلا بعد أن رأيتك

تزداد نقراتها فى قضبان قلبى الآن.

قلت لى: أحببتك قبل أن نولد رسمت ملامحك على قلبى منذ بعيد أبعد من أول البشر وآخر البشر.

أتهمك بالكذب والصدق معاً.. أخاف بُعدك عنى فأنت كستائرالليل تلفنى وتخفينى عن عيون الكون كله.. عيناك تصطادانى.

أعود إليهما كلما هربت قلت لى :

لاتسأليني عن قيد تهواه النساء ويقبر فيه الوجد، أنا زرزور شارد، يرفض الشباك، الزوجة سجن، عفريت من نار أفضل البوح بين يديك، عن النوح بعيدا عنك..٠

صرخة الطفل، وأمه تجره من يده، أفزعت خواطرى.. أحسست بسخونة فوق خدى.. مددت يدى أمسح دمعه !!

جنازة.. سارة جدا!!

صفق الباب خلفه، ابتعلت خطواته درجات السلم، انسلت من باب العمارة داعيا :

زلزال يارب.. لماذا تغمض الكوارث العين عن زوجتي..

لسانها منجل يحصد الابتسامات.. هات.. هات لاتخطيء يوما وتلفظ خذ..

بلا هدف يطوى الشوارع . تطالعه ا لنساء فى أشكالهن، سمينة، نحيفة، طويلة، قصيرة، يشتركن فى مقاس اللسان الطويل..

نظر حوله.. القلعة.. شعر بالتعب فجأة لمجرد تذكره أنه مشى من الهرم، أنحط جسده على كرسى فى مقهى، مدد قدميه، خلع حذاءه، غفا، استيقظ على صوت الرجال يهمهمون (لاإله إلا الله) يسيرون فى صفوف، أمامهم " نعوش" مغطاة بمخمل أسود..

- ياساتر...

ابتساماتهم تعلو وجوههم.. تُرى لمن الجنازة الجماعية تلك.. ماذا حدث ؟!

قال أحد المشيعين لرفيقه :

النساء تموت بالجملة.. بركة من عند الله.. الحمد لله.. أقصد لاإله إلا الله.. لاإله إلا الله...

هل تعنى أن كل النساء ماتت ؟!

بعض الأحياء تطهرت منهن جميعا.. وبعضها مازالت تنتظر !!

ماذا عن حيّ الهرم ؟

الهرميات.. كلهن متن !!

هرول الرجل تاركا حذاءه.. نادى عليه النادل لم يجب، خفت آلام قدمه، لم يشعر بسخونة الأسفلت.. لم يسمع سباب المارة الذين يصدمهم وهو يعدو..

التهمت قدماه السلم فى قفزة واحدة، فتح الباب.. صمت.. نادى.. أنصت للفراغ يردد الصوت.. قهقه.. ارتمى فوق الأرض.. خلع القميص.. ألقى به فوق نجفة الصالون.. يهتف :

زوجتى ماتت.. شكرا يارب قبلت دعائى.. ليتنى دعوتك بحورية تهبط من الجنة بدلاً منها.. حورية لها شفاة وردية.. جسد مرمرى..

سمع صوتا خلفه :

لماذا يرسل الله لك حورية وأنت شيطان ؟

التفت... صرخ...

عفريته... أنت.. ألم... لا...

فتح باب غرفة الأولاد صرخت حماته مهللة :

ماهذه الدوشة.. لماذا تقف عاريا.. يا «مخبول»..

بحلق فى وجه حماته نفس ملامح زوجته لسانها يخرج يسعى يلتف حوله، يسقط... لايتنفس..يحمل إلى قبره يمرون به من الهرم إلى القلعة إلى السيدة عائشة

هجرة

أخرجت المُدرِسة القلم من حقيبة فوزية، بحقلت مع صديقاتى مكذبة عينى، وبين ذهولنَا وانتظارنا للرد سقطت مغشيا عليها، حملناها لطبيبة المدرسة.. عرقها يختلط بالدموع، صرخت :

لاتحرقوا الزيتية.. أخى.. اسماعيل.. هناك..

غاب وعيها ولم تغب الدموع، صدرها يعلو ويهبط، هبت صارخة :

لن أهاجر، سنموت هنا...

ضمتها الطبيبة لصدرها :

فوزية.. فوز ية.. أفيقى، أنت هنا فى المدرسة..

هدأت.. تعلقت بى مستعطفة :

أريد العودة إلى أمى..

حملت عنها حقيبتها وحملت هي همومها.. إنصرفنا، نظرت لي فوزية:

لأول مرة سترين مسكننا، تأملي حالنا جيدا، مدرسة قديمة نعيش فيها، كل عائلة لها (فصل) هو حجرة نومها ومعيشتها ومطبخها، الحمام مشترك كما ترين، بالتأكيد لم تستحمي بالليل مثلنا- هربا من العيون المخترقة للأجساد..

في اضطراب همست مترددة كأنها تتوجس مني :

لم أسرق القلم لست سارقة.. مسروق مني كل شيء.. لماذا تنظرون لنا كأننا لسنا منكم ؟! كل جرم لابد أن يكون الفاعل من المهجرين.. دخلت معها الحجرة، تجلس أمها على الأرض أمام موقد نار بعين واحدة تطهو الطعام، ملابس معلقة، على الحائط ستارة تشق المكان نصفين، صناديق وضعت عليها الكتب، استقرت عيني مرة ثانية على الأم، وجهها إتشح بعصابة سوداء بلون جلبابها :

ماذا حدث يافوزية ؟ لمذا عدت باكراً ؟

شعرت ببعض الألم في معدتي.. هذه صديقتي الوحيدة هدى حدثتك عنها طويلا..

نعم... أهلا يابنتي.. لاتؤاخذينا.. المكان..

إن شاء الله تعودون قريبا لبيتكم..

تركتهما بجسدي انسحبت أجر قدمي...

قصصت ماحدث لأسرتي.. قال أبي : تستطيعين تقوية علاقتك بها ودعوتها للمذاكرة معك هنا.. لكن من فعل بها هذا المقلب؟

بنات فى الفصل يكرهنها، لأنها متفوقة، مؤدبة وفى حالها..

المُدرِسة ستحقق غدا وسأشهد معها بما رأيته سالفا من إضطهادهن لها

ذات يوم حملنا أبى فى سيارته للنزهة فى الفيوم، قالت فوزية :

جـــنة...

توهج وجهها، إنتفضت شفتاها وهى تهمس :

لو رأيت «لزيتية» وهى تحرق.. ستون فنطاسا من زيت البترول.. لهب النار يصل للسماء، يحرق طيرها، يذيب السحاب، أربع ساعات فقط، أحالوها إلى جهنم.. هل يحرق الملائكة فى النار ياهدى؟

اسماعيل أخى ملاك.. عطوف.. كان فى الزيتية، ذهب فى الصباح ولم يعد..

لم ننم ليالى طويلة، ليس فقط حزنا على أخى، النار أحالت ليلنا ظهرا ثقيلا..

تحسستها فى هدوء، جسدها ساخن ينتفض

عليك بالنسيان يافوزية.. أخوك سننتقم له...

استرسلت كأنها لاتسمعنى..

كان اليهود يخزنون الصواريخ فى الجامع، فلا نستطيع ضربه أو حرقه، كنا نموت كل يوم، ساعات الضرب فى الصباح من السابعة والنصف لمدة ساعة وقت ذهابنا للمدارس، والدى كان يخرج لعمله وهو يردد الشهادة،

لايتوقفون حتى يسقط من لاثمن لهم، وفى شهر نوفمبر.. قرروا تهجيرنا.. حملت مقعدا، جلست تحت سلم بيتنا قلت لأبى :

فليسقط فوقى، لن أبرحه..

حملنى أبى عنوة، شحننى فى سيارة نقل مع قليل من الأدوات المنزلية وكثير من الأطفال والنساء والعجائز والبكاء والصراخ .

قاطعتها :

– فوزية.. جئنا نمرح، نركض، نسبح فوق الخضرة،...

= شكانا يوماً جارنا.. عذرا.. أقصد رجل يسكن فى منزل مقابل للمدرسة قال :

المهجرون «وسخوا» المنطقة بالقمامة...

توقفى.. كفى حزنا، نحن أيضا نكبدهم خسائر، أنسيت إيلات، والقطعتين الحربيتين " بيت شيفع " و" بيت يم"،

لن يقتلك اليهود، ولاقسوة الجيران، بل حزنك هذا..

لايبدى إلا الحزن...

الأمل يافوزية... الأمل...

جرحى عميق..

سوف يبرأ...

لفنا الصمت ونحن نتأمل الطيور المهاجرة فوق بحيرة قارون، تتجه نحو الغرب..

حبات التوت

عاد يضرب بعصاه الأرض، تنبت شجراً مثمرا من فاكهة الجنة، لحيته الدائرية تكمل استدارة الوجه القمرى وثياب بيضاء وعمامة أفك أطرافها.. أعبث بشاربه.. يضحك :

شيبة جدك يابدر..

– اسمى ليس بدرا..

يتركنى.. يغيب، أنتظره مع الغروب بين الأعمدة الرخامية، تطول، تشق السماء، أدور حولها، لأستطيع احتواءها بين ذراعى .

تناسب شموخ منزل جدى، يبسط الكلب العجوز عنتر ذراعيه،

شاب ولايجرؤ أن يدخل من بين الأعمدة للدار .

أنتظر الجد، يَمُدّ منديله الأبيض الناصع بحبات من التوت الأحمر، يُطعمنى، يتمتم :

«بسم الله الذى لايضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء»

- شبعت ياجدى...

كلى يابدر، لن تجدى من يحضر لك توتا بعدى..

- لماذا ؟ ! أين ستذهب ؟!

هناك...

- هل تأخذ معك التوتة...

يضحك، ترقص الشجيرات، يستدير القمر، أخطف عصاه :

- كيف تجلب التوت ؟!

أصعد إليه.. لايهبط إلى..

أخطف منديله المعبأ.. أجرى.. تجزع قدمى.. يهرول يحملنى فوق كتفيه فى خفة ابن العشرين، يطوى حارات البلده :

أين ذهب الناس يابدر، سأطببك بنفسى..

يجلسنى فوق الأرض يبسط كفيه يقرأ فيهما، «يملس» فوق القدم يقبلها تسقط عينيه دمعة ساخنة..

رائحة التوت تفوح من المنديل الآن، وأنا أخرجه من صدرى..

أجلس فوق كرسى الجد.. أراقب.. الجده تركض خلف جرو فى الدار..

تجرأت القطط والكلاب منذ مات عنتر..

نظرت للأعمدة الرخامية وجدتها تغوص بالأرض، تذوب كقطعة ثلج في انكسار، سحبت عصاة الجد، جلست أمام الدار..

لن يتجرأ بعد اليوم أحد.. لن نغلق هذا الباب...

سيـدة

اصطدمت عيناى بها وهى تقف أمام مسرح العرائس فى ثياب تجسد أناقته اناقتها، هذا وجه لا ينسى.. وجه سيده . استيقظنا يوماً فوجدناها تطوف بحينا بحثاً عن كسرة خبز. لا ندرى من أين جاءت !

جسدها غطاه (الوسخ) وبقايا من صناديق القمامة التى تعبث فيها.. سميناها سيده فلا اسم ولا عنوان نعرفها به.

الناس تناقلت قصتها بقليل من المعر فة وكثير من التخمينات، قالوا :

ـ متخلفة عقلياً.

ـ بل هى مصابة فى حادث أفقدها الذاكرة.

ـ سيده تعرضت لظلم شديد أفقدها عقلها..

وهكذا كنت أراها فهى تتلفظ ببعض الأسماء وتصمت وتغرورق عينها ثم تضحك عالية، تهرب من ضحكتها ودموعها وهى تجرى خلف العصافير فى السماء تناديها.

وقعت فريسة للتفكير فيها ليالى طويلة، والناس صنفان، صنف يعطف عليها بعض السيدات الطيبات يغسلنها مما علق بها من تراب ويطعمنها ويوفرن لها مكاناً للمبيت تحت بئر سلم، وصنف يتسلى بها.. تجلس سيده على الأرض، تنادى ساكنى العمارات، وتطلب شاياً مع كيك تضع ساقاً فوق أخرى وتحدث نفسها فى كبرياء، تنادى على صغار وهميين تطعمهم.. فجأة تصرخ ترتمى على الأرض تضمهم لصدرها.

تختفى شهوراً، عادت وجدناها منتفخة البطن.. لم نعجب لما رأينا وسألناها.. لم تدرك السؤال ولا الإجابة..

اقترح جارنا الطيب أن تودع سيدة مصحة عقلية هى وجنينها اختلطت دموعها بضحكها وبكاء النساء الطيبات، وهى تدفع إلى المصحة.. تصرخ..

ـ اتركنى.. أخذت كل شئ حتى الأولاد لا.. لا..

تضرب بيديها فى الهواء كأنها تدافع عن شئ تراه، نسيناها.. صارت حدوتة، تحولت لخيال عند الصغار، وها هى ذى الآن أمامى.. بين الإقبال والتردد، اقتربت منها، ارتبكت السيدة، جذبت الطفل، ابتعدت عنى وهى تنظر خلفها، أردت اللحاق بها، وجدت من يجذب ذراعى من الخلف.

ـ ماذا تريدين ؟!

ذعرت في بادئ الأمر.. أجبته :

ـ هى شبيهة بسيدة أعرفها إنها.....

وعقد الصمت لسانى.. انه جارنا الطيب، الذى أشار منذ سنوات أن توضع سيدة فى مصحة، واختفى بعدها بعام :

ـ ألا تعرفنى أنا.... !!

ـ نعم أعرفك ماذا تريدين منها ؟

ـ الاطمئنان عليها.. إن كانت هى سيده.

ـ أسمها ناهد.. كانت مدرسة لغة فرنسية، تزوجتها ونعيش فى الاسكندرية.

ـ كيف ؟

ـ هل يهمك أمرها ؟

ـ لا إنه الفضول وقضمت كلمتى حتى لا أقسو عليه بها.

ـ بعد أن أدخلتها المستشفى مشفقاً كنت أذهب كل شهر لزيارتها.

حتى يوم مخاضها، انجبت ناهد ولداً جميلاً كانت تبكى وتصرخ، اتركوهم لى وخارت قواها وغابت عن الوعى بعد الإفاقة وضعوا الطفل على صدرها وكأنها قامت امرأة جديدة حملته بعناية ألقمته ثديها ربتت فوق شعره بحنان ضمته سالت دموعها تغطى وجهها الحمد لله .. لقد عدت

لى يا حبيبى.. لم تتحدث إليها ولم يستطيع أحد الاقتراب منها لأخذ الوليد.

ـ وهل كانت... ؟

ـ أعلم ما تريدين معرفته، الطبيب قال لا خطر فهى مريضة هادئة..

كانت تتحدث بعد ذلك بمنتهى العقل والاتزان.

عرفت حكايتها واسمها.. كانت زوجة لرجل خليجى ثرى أغدق عليها وعلى ذويها سافرت معه، اعترضت لكونها الزوجة الرابعة.. دون جدوى أصبحت أماً لطفلين عاشت من أجلهما.. لم تكن معاملة زوجها عادلة، فكان يشق على نفسها أن تعامل كمواطن درجة ثانية فى منزلها، أرادت العودة لبلدها، اعترض.. تعاطف معها كمال مدير أعمال زوجها، شعر الزوج بذلك.. دعاها لقضاء الشتاء بالقاهرة، عادت معه، انتظرته يأتيها مع طفليها.. يوماً.. أسبوعاً سنين، لم تستطع السفر كان قد طلقها وسحب تأشيرة سفرها.. صرخت لجأت لكل الأماكن سفارة.. شرطة.. قضاء، خرجت تهيم بالشوارع و... و...

وانصرف نظرى إليها وهى تحضن طفلها، واستدارت ناحية باب المسرح.. تدخله الآن سيدة راقية جميلة عادت من رحلة مضنية شاقة..

مذكرات أنثى

أفرغت خزانة الملابس، تربعت فوق السرير، فساتينى ضاقت علىّ وضقت بها، سأتخلص منها، أعيد ملء الخزانة بثياب جديدة.. ألوان زاهية تليق بعام جديد وعمر أود الانتماء إليه.

أرتديت ثوبى، رفعت شعرى، زينت وجهى وفى سيارتى أدرت الراديو، الاستعدادت قائمة لاستقبال الناس فى احتفالية الألفية الثالثة برد زحام فوضى غربة عدلت عن رأيى سأسهر فى منزلى أمام هذا الجهاز المستفز.

أرتب لهذه السهرة منذ عدة أشهر، بدفتر مذكرات جديد، ملابس جديدة، صدر جديد يحمل قلب وليد فى البيت أعددت قدحا من الش اى، مددت قدمى أمامى، تدثرت بالأغطية، انتظرت بدء الحفل.

مرت ساعة لم أفهم شيئا الهرم فى الخلف أبو الهول، موسيقى فرنسية، أضواء صاخبة، صوت أم كلثوم حلم مزعج طويل تململت ألقيت الغطاء قفزت إلى مكتبى، أخرجت دفتر مذكراتى القديم، فررته سريعا.

فى يوم قررت الذهاب فى رحلة إلى مدينة الأقصر.

رفض أبى :

لا مبيت خارج المنزل.

يا أبى نحن فى سنة سبعين.

ولا سنة ألفين.

بكيت لأمى لماذا القهر أين الحرية؟!

ضاحكتنى أمى قائلة: من طالب بحرية المرأة رجل تنفر منه النساء، المطالبون فاسدون، يخدشون حيائنا، يخربون عقولنا لا تكونى كالفراشات تعدو خلف النور للرقص فتحترق.

يا أمى هل أنعم بدفء الرق ؟!

الحرية لحن مسروق، كلمات هابطة، نحن خائفون عليك.

لا داعى للرحلة إننا لا نعدو سوى مخلوقات يلهو بها الرجال، دميات جميلة تتحرك، يعلمونا الرقة والتوحش ويسخرون ويضحكون ويتحكمون بعد الزواج سأصير حرة..

١٩٧٠/٠٠/٠٠

أشعر بالدفء يحتوى أوصالى، أقلب الصفحات، أطلب ذكرى أيام ليتها تعود.

تلمست كوب الشاى، وجدته فارغا، هممت بآخر، يتسرب إلى سمعى صوت الجيران يصخبون، نظرت من الشباك، ا نطفأ النور فى الشقة المقابلة

تعالت الضحكات وصرخات النساء ولهوهن أضاء النور، ما زال بعضهم يحيط بذراعه السيدة المجاورة له آه خرجت من قلبى ممدودة عالية عدت أتلمس الحائط بأصبعى فى حركة راقصة.

فجأة انقبض قلبى كان رجلا قاسيا حطم قلبى سحق ذراته عدمه خير من وجوده لو كان ما يزال زوجى لخرج يلهو مع واحدة من هؤلاء.

احتضنت أصابعى أصابع البيانو الملتصق ببرودة الحائط، سرت النغمات تنفض كسلها وأسرح معها قال لى :

– عزفك نقيق ضفادع.

– لعنة الله عليك وعلىّ وعلى لحظات غضبى انزوى فى ركن مهمل من حياتك لم أكن عندك سوى جسد ملقى بطرقات مسكنك، تطلبه تركله متى تشاء أسألك :

هل تحبنى ؟

– ضاحكا يا بلهاء ماذا بك لأحبك؟

سأريك ماذا بى ليحبنى غيرك.

تحولت لما ترغب : عريت الجسد لونت الشعر بألوان تصرخ، رأتنى عيناك فى عيون الرجال المحيطين بنا ، همست ذات ليلة:

أين كنت ؟!

– كنت أمامك لك وحدك.

- أحبك هكذا.

- مشاع !!

- لا فاتنة أحب زوجتي تبهر عيون الجميع، يشيرون إليّ يقولون : يملك أجمل امرأة.

- أنت لست رجلا أنت (....)

- أنت طالق.

طرقات لاهثة على الباب أختي وزوجها وبناتها :

- سئمنا مشاهد الاحتفالية قررنا المرور عليك.

لملمت الأغطية ودفتر المذكرات، ألقيت بها بعيدا، بدأت معهم مراسيم الاحتفال بعام، لعله يكون جديدا.

إختباء

خرج من الخان، نظر إلى يساره، دب على الأرض بقدمه الطرية، ركض، تعثر، نادى بصوت متقطع : ما.. ما، تهدج صوته، فرش ذراعيه على الأرض واضعا خده الناصع الحريرى يتلمسها.. هرولت، حملته بين ذراعى، أشار بأصبع دقيق : ماما.. إلتفت، تجمدت نظرتى على ا لسيدة المقبلة تشبه أمه إلى حد كبير.. ضممته لصدرى، دخلت الخان، أرحته أمامى على مقعد وجلست أنظر لبراءته وهو يعبث بنظارتى.. الدموع لم تجف على وجنتيه الورديتين.. يشبهها.. ناصع البياض مشرب باللون الوردى.. ذوقها عال فى إختيار ألوان ملابسه، لماذا أذكرها الآ ن تلك الفاجرة الملعونة؟!

ماذا أخذت من جمالها غير الخزى والهوان ؟! سأمزق مشاعرى سأنزع قلبى إن فكر فيها، لن أحتفظ بشىء يذكرنى بها سأحرق كل شىء بابا.. بابا ..

اخترق الصوت قلبى هبطت نظرتى فوق الوجه البرىء، تشقلب فى حركة بهلوانية ونزل على الأرض.. عاود ا لكرة نحو باب الخان، تركته ألقيت جسدى الخائر فوق مقعد، أحنيت رأسى، تلمست ساقى.. من أحرق ؟ نظرت إليه قد أتحمل نزع قلبى حيا ولا أتحمل وخز الإبرة على جلده الناعم ..

يدب بخطواته الهامسة فوق قلبى فيدق وأحيا.. توسدت الهموم.. أختبأت فى بؤرة أحزانى.. تركتنا ا لفاسقة وانصاعت لما تسميه "العشق" همست فى رقة الملائكة :

– لنكن أصدقاء، فوجود طفل بيننا لايعنى أن نستمر فى مهزلة رسمية أسمها الزواج، سأترك الشقة، الـ ....

= ماذا ؟! لم ؟! كيف ؟!.. خلافاتنا مجرد عراك يحدث بين معظم الأزواج !!! .

– نحن مختلفان.. تغيرت مشاعرى ، أختار حريتى..

لن أخدعك.. الحياة معك أطول من حقيقتها ..

= طارق.. ابننا البرىء ... لاذنب له ...

– إن أردت الاحتفاظ به فليكن ...

= أنت.. أنت.. طاااااالق !! ..

دموعها تنحدر، ومن بين اختناق صوتها تسأل كأنها الضحية :

هل أحتفظ بالطفل حتى يكبر قليلا !! أم تستطيع رعايته ؟

- أخرجى !!

ملابسها.. أحرقها.. ألقى بكل أغراضها خارج المنزل، أطهر حياتى من ذكراها، من ضحكاتها الساحرة كطفلة خدعتنى براءتها، سأنـ..."طـارق.. طارق".. هرولت خارج الخان نظرت لطفلى، يذهب يسار المحل ثم يلتفت ويعود، ثم يذهب لليمين ويعود.. جلست أنتظره، عاد ألقى بكفيه الغضتين على عتبة الباب، رفع ساقه الطرية، صعد يريد أن يلاعبنى يشعر بالوحدة.. مددت يدى.. أخذها، يثنى أصابعى ضاحكا : بيضه.. بيضه، ثم يقوم يزغزغ بطنه ويضحك، يلقى خده فوق ركبتى يستدير فجأة يعضنى، أصرخ، يملأ الخان ضحكاً وصراخا، يجرى يختبىء خلف المكتب، لاتحملنى ساقى للعب معه ينادى :

با... با ...

أنهض متثاقلا، أبحث عنه، أمسك به، يركض ..

عبثه يعيدنى الآن لأيامى الخضراء، حرمت من أبى.. أمى سيدة شريفة لم تتزوج بعد وفاة والدى، كانت صغيرة السن.. فضلتنا على سعادتها.. والدى يعشق النساء.. كانت أمى عاقلة يوم مات بكت كأنه أخلص الرجال، لمَ.. لمْ تخلص ؟!

أخلصت لها، كانت تملأ عينى.. أغدقت عليها من مالى ودمى، ورثت الخان عن والدى، رزقه معقول.. ليس المال ماجعلها تتركنى.. الحب.. لا.. العُهر.. لم تثنيها أمومتها عن الخطأ ..

أفقت من همومى بحثت عن الولد.. ليس فى الخان.. خرجت.. نظراتى تلتهم الأفق كله.. طارق ... طارق ...، جريت، جررت خوفى ورائى، أحترق رعباً، تحلق الناس، بحثوا، ذهب بعضهم لقسم الشرطة.. جرتنى قدماى للخان جلست أنكفىء على مقعد ورأس فوق الطاولة بكيت.. تمنيت حرق كل ما يذكرنى بأمه، عشقت آخر ولكنها لم تستمر فى خديعتى، فضلت أن تنفصل وتعيش.. إنه الصدق.. الصدق المر ...

ضاع الولد، كاد ينجح فى اختراق عالمى الحزين والفرار بى منه، تذكرت صدر أمى تمنيت لو أختبىء فى صدرها.. لو تشد أذنى تدغدغنى بلمساتها فوق ظهرى ..

أهذه يد؟!.. يدٌ طرية تتلمس ركبتى.. نهضت.. ركعت تحت المنضدة.. طارق.. طارق.. نائم تحتها !! ضممته لصدرى.. رفع يديه، جفونه متثاقلة :

- با... با ...

ألقى برأسه فوق كتفى خرجت أزف خبر.. عودتى ...

جناحان

تك.. تك.. قطار السادسة اعتادت أن تستقله مع زوجها كل خميس لينقلها إلى منزل آخر لالون لجدرانه يجتمع فيه أناس كثيرون للثرثرة التى تتصدع معها أحلامها، تجلس دوما بجوار النافذة، ويجلس بجانبها هذا الثرثار، ماأن يجلس حتى يبدأ فى الكلام.. أى كلام يتخلله ضحك ويوجه الحديث إليها وإلى من يبتليه الحظ ويجا و رهما.. فى بادئ الأمر كانت تهرب من فجاجته إلى وجوه الناس تقرؤها.. تمل.. تهرب عبر النافذة إلى الخضرة تواصل قراءة ألوانها، اليوم بدا الأمر مختلف جلست تستنشق الهواء خارج النافذة يحادثها زوجها تهم بالنظر إليه عيناها تقع على وجه أسمر، بملامح دقيقة وأكثر ما جعلها تهوى تحت عيدان البرسيم الخضراء تلك النظرة الصارمة الحانية من عينيه، تمعن النظر إليه، ينظر فى ورقة بيديه يخط مزيدا من الخطوط لم تستطع أن تلمح ما يفعل لعله معجب بالألوان

الخضراء والأشجار بطول الطريق.. (الزوج مازال يثرثر عن حوادث القطارات تختلط الثرثرة بالضحك، لايبالى باتساع حدقتى الطفل والرعب المحفور فى عينيه ممسكا بملابس أمه.. هل يقع حادث للقطار ياأمى ؟

ربتت على كتف صغيرها.. إنها مجرد قصص !!

الزوج لايعلق، ينتقل إلى حكاية أخرى.. أنتبه لشرود زوجته تحدث إليها لم تنظر إليه.. كانت تختلس النظر للرجل الأسمر لاترى شيئا، فالورقة التى فى يديه تحجب نصف وجهه، تنظر عابرة للسيدة والطفل بجوار الرجل الأسمر، تراها تبتسم لها ابتسامة بلا معنى، لم تفكر فى معناها، تدير وجهها، زوجها يواصل الثرثرة مع السيدة والطفل..

– زوجتى تحب الموسيقى والغناء، إنها عازفة بيان و، تعشق الطبيعة، إنها جميلة صامتة، تزوجنا منذ خمس سنوات.. شروق.. أليس كذلك إنك لاتحبين الكلام.. شروق..

التفتت إليه بامتعاض.. نعم..؟ هل تنادى ؟

– هل تريدين قدحا من القهوة ؟

– نعم...

عاودت النظر للرجل الأسمر، ينظر إليها من خلف الورقة، عيناه عسليتان واسعتان عميقتان، أحمرت وجنتاها، خفضت رأسها قليلا.. عاودت النظر إلى المرأة والطفل بجوارها.. تنظر المرأة لها مبتسمة وكأنها تشجعها على النظر إليه مرة أخرى وتقول : أعلم شعور تلك النظرة على قلب المرأة،

عادت تنظر خارج النافذة تتطلع إلى الأعمدة والأشجار تمر بجوارها بارقة تصفعها كى تفيق، أو تنفض هذا الهم الجاثم فوق صدرها منذ تزوجت من هذا الثرثار، حسدتها صديقاتها، وتذكرت وفاء وهى تضحك قائلة : (يابختك) .. زوجك يتحدث معك كثيرا.. زوجى صديق للصمت.. والحب يأتى لاحقا أو لايأتى.. أبتسمت شروق تذكرت أنه أبدا لم يكن يحادثها هى، دائما يتحدث بصوت عال ليسمع كل المحيطين بهما.. دائما كانت تأمل فى حديث هامس.. يخصها هى.. لم يلحظ يوما أنها تمل ألا تكون لها خصوصية فى حياتها.. عنيها أن تذهب معه فى رحلتهما الأسبوعية لجدران لاتختلف كثيرا عن جدران منزلها، تجلس مع عائلته تتح د ث فى كل شىء بصوت عال، تمنت لو يكسر تلك القاعدة يوما ويرحل بها بعيدا، لو يغار عليها، ثقته تكبلها، لو يذكرها !! بم يذكرها ؟!

ليس هناك لحظات شاعرية فى هذا الزواج، كم تمنت أن يقتحم الحب حياتها معه لتعيش من أجله، حتى أمنية الأمومة لعلها الزوجة الوحيدة التى تمنت ألا تكون أما حتى يتفجر ينبوع الحب بداخلها، فتروى منه كل من تحب، لكنها جدباء المشاعر والعاطفة، تمثال يتعشقه ذاك الأبله..

لم يستطع أن يفجر فيها عينا واحدة لترويه وتروى..

سأل الطفل أمه : هل هذه السيدة خرساء ياأمى ؟..

نهرت الأم طفلها واعتذرت لشروق عن فضول الأطفال..فلم تجب وبادلتها بابتسامة باهتة..

الرجل الأسمر ينظر إليها.. يحاورها بعينيه.. نظرت للورقة فى يديه.. صورتها.. وجهها.. جسدها بجناحين.. اتسعت حدقتا عينيها.. كم تمنت

أن يكون لها جناحان، شعرت بالدفء يسرى.. أطالت النظر للرجل.. أفاقت على صوت السيدة المراقبة للحظات البوح الصامت بجلال وهيبة محدثة طفلها :

على الإنسان أن يصحح مساره.. أن يغير القطار إذا تكشف له خطؤة، همهم الطفل : يعنى إيه ياأمى ؟

ضمته الأم لصدرها مبتسمة بمكر طيب لشروق.. فى تلك اللحظة قام الرجل الأسمر يحمل معطفه.. القطار يقترب من محطته توقفت دقات قلبها.. وعجلات القطار، انتفضت واقفة حملت حقيبتها الصغيرة ونظرت للطفل مبتسمة : أتمنى أن ألقاكم ثانية..

نزلت من القطار خلف ذلك الأسمر، إنه ينتظرها على الرصيف وسط الناس، عاد الزوج يحمل قدحى القهوة.. تعجب لعدم وجود شروق وسأل السيدة :

هل رأيتها؟!

لم تنطق على حين أشار الطفل للخارج وقال : نزلت..

هرول الزوج خلفها وهى تبتعد.. لحق بها لاهثا.. : لماذا ترحلين وحدك؟

وحيدة.. نطقت بها.. نظرت بجوارها فى تعجب.. لم تجد فارسها الأسمر.. التفتت فى دهشة.. ابتسمت.. أشاحت بوجهها.. أكملت طريقها وحيدة.. فقد نبت لها جناحان...

نشرت بجريدة الزمان أغسطس...٢٠

السماء تمطر رجالا

كحلم مزعج أصبحنا نخشاه نحلله ولا نفسره دائما.. تندرنا به تناقلته القرى بحرص وبخوف، فى بلدتنا لم نعد نسمع عن سيدة أنجبت ذكرا منذ خمس سنوات..، وفى سبوع أحدث المولودات جلسنا نثرثر قالت إحدانا :

– العمدة سيرشح نفسه مرة ثانية..

– الحاج ابراهيم أبو أحمد أولى، إنه رجل صالح يراعى الله

– كلهم أول الأمر يراعون الله وبعد ذلك الله.. وحده يعلمّ بهم .

– العمدة سيفعل أشياء جديدة كثيرة للبلد .

– يعنى هذا أن الأرض ستزرع وحدها، الرجال لن تذهب إلى الغيط مرة أخرى .

– أين هم الرجال، سافر نصفهم لجلب المال.. والباقون مثلّنا أننا ننجب منذ سنوات بنات وكأنهن من صلبنا (حريم فى حريم) وضحكت ضحكة علت بعدها الضحكات... صرخت فيهن فتحية:–

مالهن البنات ؟ ! ربنا يبارك .

سألتنى رزقة : لوكل البلاد أنجت بنات مثلنا.. من سيذهب للجيش (الحريم) ؟!

سبقتنى الضحكة : لله نظام فى الكون ولن يجعلها الله نساء فقط أبدا أحنت رزقة رأسها وبنبرة حزينة همست وماقيمة الرجال بلا رأى أو كلمة مثل الحريم؟!!

علت أصوات النسوة.. وماذا يعيب الحريم.. يعملن مثل الرجال كل شيء حتى الأرض مثل المرأة.. تحمل.. تلد.. تحنو..

تحولت الكلمات إلى لغط شديد وتراشق.. سألتهن مارأى أزواجكن فى ترشيح العمدة ؟

فتحية : زوجى يرى (إن كان مازال يرى) أن أحمد مثل سيد أحمد إتزويت أراقبهن أفكر فى كلامهن ونظرتهن لما يحدث.. أفكر هل نملك نحن من تعلمنا أن نجد تفسيرا لما حدث.. الرجال لايحركون ساكنا ولاحتى مجرد رأى كأن الشمس لم تصبغهم بصبغتها.. كأن الأرض لم ترضعهم صلابتها.. كجذور الشجر تعلو هاماتهم لا تنحنى.. قالت سيدة عجوز لاتثرثر كثيراً : الرجل لايكسره إلا الظلم تمحى رجولته تناهى صوت رزقة وهى تضحك ضحكتها الخبيثة تقول :

بعد سنوات قليلة سيكون العمدة «حرمة» .

أجابتها فتحية : والعمدة أين سيذهب ؟..

جلجلت ضحكتها بمكر المرأة.. " سيكون بركتنا" ..

وغّصت فى أفكارى مجددا، إذا كان الظلم يقهر الرجال، فماذا يقهر النساء.. هل ما يحدث لبلدتنا لعنة ؟ ! ولعنة من ؟ !

أيكون موقف الرجال مقاومة سلبية.. عدم المشاركة بالرأى سكوتهم حتى على التهكمات الفالتة لنسائهم.. وإنجاب البنات كيف يكون موقفاً ؟ ! هل علينا أن ننتظر أن تمطر السماء رجالا تحمينا ؟ بعد أن هجرنا رجالنا.. تنازلوا عن رجولتهم !!

إهتزت الأرض تحت قدمى بشدة.. هرجٌ بالخارج.. رجال غرباء أمام دوار العمدة.. نيران، مشاعل، أصوات همهمات الرجال، كم اشتقنا إليها تلك الهمهمات.. هل استجابت السماء لدعائى، هل أمطرت من يخلصنا من الظلم.. إنهم يخرجون العمدة وولده من الدوار.. لعلهم رجالنا سمعوا بأن العمدة يريد إمتلاك الأرض لعدم وجود رجال لحمايتها.. دبت فيهم الروح.. ثاروا.. هبوا.. اشتعلت نيرانهم بعد أن خمدت.. أدركوا أن من يظلمهم ليس منهم فجرت النخوة فى عروقهم.. هل ؟.. وهل.. ؟

تذكرت رزقة عندما قالت : طول عمر بلدنا مقهورة وكلما أردنا قول لا.. خرجت صمت.. يفسروها نعم.. كالبكر صمتها (نعم) هل يجيىء من يفض بكارة صمتنا يفسر قولنا.. !

كان صوت (الهون) يصك أذني والمشاعل أنوارها تتوهج تتصارع كتلة واحدة ناراً تصرخ.. فجأة سمعت صوت فتحية مهرولة إلى أفقت نظرت.. حدقت لم أجد الرجال أين المشاعل والنار

فتحية : تعالى ياأستاذة سعدية لم تنجب أنثى إنها ذكر.. والله ذكر هرولت معها، دخلت على السيدات وهن ينظرن صامتات مشدوهات ناحية «الرجل» الرضيع.. وجدتني أصمت معهن إجلالاً للموقف من رحم كل أنثى سيخرج ذكر...

نشرت ب جريدة المساء مايو ٢٠٠٠

البيت المهجور

منزل جدتي أركانه خربه، مظلم يستولي عليه التراب ويمرح به العنكبوت بحرية، شققت خيوطه بصعوبة لأصل إلى مفتاح النور، أضأته.. ندمت.. تأكدت لي ميزة جديدة للظلام.. نظرت لصورة جدتي على الحائط.. بقايا من عز قديم في ثيابها العربية الموشاة ومجوهراتها . تذكرت أقاصيص أمي وحكاياتها عن منزل جدتي وانتابني الخوف لحظةً ثم لحظات، سرت قشعريرة ببدني، أرتمي على مقعد وثير.. تمنيت لو غطاني التراب لعلى أتدفأ به أو لعله يخفيني عن أشباح الماضي.. فجأه دق جرس الباب انتفضت لم أدرِ كم مر من الوقت؛ استجمعت ما بقي لي من شجاعه، قمت أفتح الباب : العجوز جارة جدتي، تبتسم ابتسامة بيضاء تخفف قليلاً من وحدتي . انحشرتْ في الباب تجر باقي لحمها خلفها، تترحم على جدتي:—

– كانت كريمة يا ابنتى ! ليتكم كنتم معها، ما كان حدث ما حدث!!

ولم تعطنى فرصة ل لتساؤل.. أمسكت طرف الكلام ولا تريدُ أن يفلت منها..

هجم فأر على منزل جدتك، وجدتك، تخاف الفئران ترعبها، تتقزز من شكلها كان الفأر يعلم هذا بذكائه ويدرك أنه لم يكن يستطيع الاقتراب من هذا المنزل فى حياة أم الجدة..

يخرج بين الحين والحين لابتزاز جدتك، تتكور فى مقعدها هذا الذى تجلسين فوقه ككومه بالية يتقطر منها العرق مغمضة عينيها وكأن أسداً سيبتلعها.. ينال الفأر ما يريد.

– لماذا لم تتدخلوا ؟!

جاءت والدتك يوماً تحاول اصطياده دون جدوى، ولأن والدتك ووالدك فى سفر دائم كان من الصعب أن تذهب جدتك لداركم، اشترت جدتك مصيدةً وسموما للفأر.. فشلت فى هزيمته . اقترحت عليها جارتنا الجديدة تربية قطة، وجارتنا الجديدة لا نعلم عنها شيئاً حتى سكنت بجوارنا . أخذت فى شراء شقق العمارة واحدة تلو الأخرى لم يبق غيرى وجدتك . أهدتها جارتنا قطة صغيرة وديعة وكانت الجدة كريمة تطعمها كل يوم طعاما مخصوصاً لتخلصها من العدوان الغاشم .

– والفأر نفسه طعام لذيذ للقطة!!

– كل يوم تكبر القطة ولم يختف الفأر، والطعام يقل ومجهود الجدة أيضا يتضاءل، والفأر الصغير المقزز مازال يبتز الجدة والقطة لا تفعل شيئا سوى

الأكل والنوم . مرضت جدتك وخوى البيت من طعام القطة، لم يبق إلا طعام جدتك، لم تبخل به على القطة وجلست خاوية المعدة، حتى يوم رأينا الجدة تربط يديها ة ماذا حدث ؟!

– قالت جدتك :– لاشيء أضع الطعام للقطة عضتني بأسنانها .

في اليوم التالي وجدنا الجدة وجهها مخربشا مدمما؟!!

القطة كانت تريد ا لنوم في فراشي، قفزت وأنا نائمة وخربشتني . سمعنا صراخ الجدة في المنزل وهي تجري وتتعثر!!!

ماذا حدث ؟!

لاشيء إنني لم أرب قطة إنها نمر إنها نمر!!

جرت الجدة تهرب تركت المنزل للخراب ولم تعد، الجارة صاحبة العمارة أخذت القطة ولا ندرى عن الفأر الأسود شيئاً وعشش الخراب الذى ترينه على المنزل. مالى أراك صامتة.. حتى أمك لم تقرب المنزل .كانت خائفةَ، أنت أول شخص يدخله منذ هروب الجدة.. هل تقيمين ؟ هل تبيعين للجارة صاحبة العمارة ؟ هل تتركينه خوفا من الفأر ؟ لعله لم يعد فأراً واحداً..

نظرتُ للعجوز ذات الابتسام البيضاء التى خففت من وحدتى . نظرت لبقايا العز وآثاره، وصورة جدتى على الحائط بملابسها العربية التى قد تحار وأنت تنظر إليها، وقد لا تعرف لملامحها جنسية غير أنها عربية.. هل أترك منزلها نهباً للفئران ؟ هل ألجأ للقطة النمرة؟ أم؟!

وجدتنى أسير نحو الشباك أ فتحه.. يا الله لم يزل فى الخارج نهار، ورأيت العجوز تنصرف وهى تبتسم تلك الابتسامة البيضاء .

نشرت بجريدة المساء يناير ٢٠٠٠

دراسة :
محمد محمود عبدالرازق

القصة إمرأة

ارتبط فن القصة بالمرأة منذ الأزل. فالمرأة هى الحضن الدافئ الذى يحمينا من صقيع العزلة والغربة: أما وجدة وخالة وعمة وزوجة فى حضن المرأة نشأ فن القصة. وكان هدفه المؤانسة والمسامرة التى تغذى الأمان والألفة، وتعمل على تلاقى الأجيال، وتلقين الصغار طاعة الآلهة، ومبادئ الأخلاق.

من أين أتينا بهذا الزعم؟

سؤال تصعب الإجابة عليه؟..

فليس أمامنا من دليل غير الإحساس، معتمدين على الحدس لا المنطق. والمعرفة الحدسية ـ كما يقول بند توكروتشى ـ ليست الخادم المطيع للمنطق. فنحن نستطيع أن نتوصل إلى المعرفة الحدسية دون أن يكون فيها أثر للمعرفة المنطقية أو للمفاهيم. فالانطباعات التى تنتج عن سماع الموسيقى، أو عن السير فى ضوء القمر لا يصحبها مجهود فكرى أو عقلى. وهذا لا يعنى أن المعرفة "البديهية بعيدة الصلة عن المعرفة المنطقية

العقلية. الحقيقة لا تقبل هذا. إنه يعنى بالتحديد أننا ندخل مدنية الفن لا الفلسفة. والحدس ـ كما يقول كروتشى أيضا ـ هو الأثر الكلى للعمل الفنى، والمفهوم هو الأثر الكلى للبحث الفلسفى.

وقد يعززاحساسنا ما ذهبت إليه الأساطير اليونانية التى جعلت ربات الفنون من النساء. فقد كان زيوس كبير الآلهة أبا لتسع بنات هن ربات الفنون. وكانت الفنون عندهم تسعة من بينها الخطابة والتاريخ.

ومازال كتابنا الكبار يقدرون فضل حكايات جداتهم عليهم. فيشعرون بأنهم خرجوا من الأرحام مخوقات صغيرة، وانطلقوا من الحجور كتابا كبارا.

وأعظم رواة القصة فى العالم إمرأة..

إنها جدتنا شهر زاد التى ظلت تهدهد شهريار الملك على أنغام قصها، حتى انتزعت من قلبه بذور التدمير، وزرعت مكانها بذور التفكير المحلق بأجنحة الخيال، غير الآبه كثيرا بالمعقول. وحين هدت الرومانسيين إلى هذا الطريق صارت رمزا للحقائق الكبرى التى نصل إليها على نور الحب.

ولا غرابة ـ بعد ذلك ـ فى أن تكون القصة امرأة.. حتى لو كان مبدعوها ـ أو معظمهم ـ من الرجال.

ومثيلات شهرزاد كن كثيرات فى قصور الخلفاء والأمراء ـ ومن الغنوانى والقيان من جمعن بين جمال الجسد، وعذوبة اللسان، وبلاغة الحديث، وعمق الاحساس والفطنة، وغزارة المعرفة، وبراعة الاجتهاد، مثل الجارية تودد وغيرها[1].

وبعد ظهور المطبعة.. ورغم القيود التى كانت تقيد المرأة، وظهرت قاصات مبدعات لعل أشهرهم فى انجلترا على سبيل المثال: افرا بن (١٦٤٠ ـ ١٦٨٩) صاحبة أول قصة فى الأدب الانجليزى عن اضطهاد العبيد. واليزاهايو ود (١٦٩٣ ـ ١٧٥٦) التى اهتمت بتاريخ فضائح عصرها. ومع أن هذه الكتابة لم يكن لها فوائد فنية مباشرة، إلا أنها مهدت السبيل ـ كما يقولون ـ لظهور الواقعية فى القصة وآن راد كليف (١٧٦٤ ـ ١٨٢٣) التى اتجهت إلى قصص الرعب والفزع. وتخصصت فى التحليل النفسى للخوف وكل ما يرتبط بخوارق الطبيعة.

وفى القرن التاسع عشر نتعرف على الأخوات برونتى: شارلوت (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) صاحب: «جين إير»، واميلى (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) صاحبة: «مرتفعات وذرينج»، وآن (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩)صاحبة «اجنس جراى» ويمكن التغاضى عن انتاجها. أما شارلوت فأحرزت نجاحا سريعاً. وكان ثاكرى يشعر بحرج من جرأتها فى إبراز العواطف النسائية. وهى بدعة لم يكن العصر الفيكتورى قد عرفها.

واعتمدت اميلى على احساسها الداخلى، واستطاعت ـ من قبل عصر فرويد ـ أن تعوضى فى أعماق النفس، وأن تصل إلى أن الإنسان يمكنه أن يكبت بعض نزواته، ولكن على حساب شخصيته. وطبقت جورج اليوت ـ مارى آن ايفانز ـ (١٨١٩ ـ ١٨٨٠) الواقعية تطبيقا علميا على عقول شخوصها وكان ما يهمها هو تحليل الدوافع الخفية. وتعتبر أول من حاول كشف الرغبات التى لا تفصح الشخصيات عنها، وانظر داخل النفوس لتبيان كيف تعمل الإرادة الانسانية، وقصصها منحى إلى التطهر بالألم.

وتقف فرجينيا وولف (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) ـ مع مجموعة نادرة ـ على قمة الأوهب الجديد ـ وهى ترى أن القصة حالة من الاحساس ؟؟ المستمر، رافضة الجهد الكبير الذى يبذله الكاتب فى اتباع القواعد. فهو ليس ـ فقط ـ جهدا ضائعا، وإنما ـ أيضا ـ جهد ينفق فى غير موضعه: «اذا كان الكاتب حرا، وليس عبدا، اذا كان بوسعه أن يكتب مايريد، وليس ما يجب عليه أن يكتبه إذا كان بوسعه أن يضع عمله على قاعدة من شعوره الخاص وليس على التقليد المتفق عليه: فلن يكون هناك حبكة، ولا ملهاة، ولا مأساة، ولا قصة حب، ولا كارثة بالاسلوب المعروف، بل لعله لن يكون هناك زر واحد مخاط على طريقه حائكى شارع بوند ـ مركز المودة فى لندن ـ فالحياة ليست سلسلة من مصابيح العربات مصطفة بشكل متناسق، الحياة هالة مضيئة، غطاء نصف شفاف يحيط بنا من بداية الوعى إلى نهايتة..»

وتسلمينا بأن المنشئين فى معظمهم كانوا من الرجال، يرفع مكانة المرأة خاصة مبدعة. فإن موهبة الخلق عند هؤلاء الرجال تنسبهم فضل المرأة، فكانت الراوية امرأة، لأنها هى التى تهدهد وتدلل، وفى حضنها يصبح الرجل طفلا صغيرا. وفى أحضان القصة نصبح جميعا الأطفال لا صغارا، فنقبل على شرابها السائغ الذى ربما يكون دواء ناجحا، نتجرعه ـ مهما كانت مرارته ـ لأنه مذاب فى رحيق الرضاب.

وما أن عرفت بلادنا القصة فى ثوبها الحديث حتى سارعت المرأة إلى مداعبتها. واستندت لبيته هاشم (١٨٨٠ ـ ١٩٤٧) ـ على رأى عباس خضر فى كتابة: «القصة القصيرة فى مصر» ـ إلى «المبالغة والتشويق

والمفاجأة والوعظ» واحتفت مى زيادة ـ١٨٨٦ ـ ١٩٤١) بالصورة القصصية والمقال القصصى.

ولم يمض وقت طويل حتى ركبت سهير القلماوى القطار السريع بمجموعتها: «أحاديث جدتى» (١٩٣٥)، وعائشة عبدالرحمن بمجموعتها: «الريف المصرى» (١٩٣٦).. وتبعتهما أمينة السعيد ووداد سكاكينى وسعاد زهير وجاذبية صدقى ولطيفة الزيات ونوال السعداوى وغيرهن. ومازال القطار يسير، ونشاهد على مقاعده الوثيرة الآن مبدعات من أمثال هالة فهمى فى مجموعتها الأولى: «للنساء.. حكايات»

وهالة لا تتمرد على التراث، وإنما تعيش فى كنفه دون أغلال متطلبات العصر.. لا تصارع الرجل وإنما تطلب حمايته، شريطة أن يكون الرجل رجلا وليس حرمة: «ما قيمة الرجل بلا رأى أو كلمة مثل الحريم؟!!..» هذا قول «رزقة» فى قصة: «السماء تمطر رجالا». والحريم وفق هذه النظرة ـ بمفهوم المخالفة ـ لا رأى لهن ولا كلمة. ومن ثم فهن كالسوائم. والقواميس العربية القديمة تعرف «القطيع» بأنه طائفة من الغنم أو الغزلان زو النساء وغيرها. فى القصة أصوات أخرى تعارض من هذه النظرية. فالمرأة تقوم بدور الرجل عند الضرورة. هكذا خلقت مثل أمها الأرض: «وماذا يعيب الحريم.. يعلمن مثل الرجل كل شئ، حتى الأرض مثل المرأة... تحمل.. تلد.. تحنو...» وكل مخصاب امرأة. ومن ثم فالأرض امرأة، وليست مثل المرأة. لكن القصة فى معناها العام تؤكد النظرة الأولى.

قرية القصة لم تعد تنجب رجالا. حدث ذلك منذ خمس سنوات عندما رحل «نصف الرجال» طلبا للرزق «والباقون مثلنا» وفى «سبوع» أحدث

مولودة تحدثت النساء عن انتخاب العمدة الجديد. وكان رأيهن أن أحمد مثيل سيد أحمد. فهم جميعا ظالمون. والرجل ـ كما قالت إحدى العجائز غيرالثرثارات ـ «لا يكسره إلا الظلم.. تمحى رجولته» وكان الأكثر توفيقا ألا تقول: «أحمد مثيل سيد أحمد» بل تذكر المثلى بنطقه الشعبى: «أحمد زى ازدحمد». وللكاتب القدير أمين ريان قصة بعنوان: «ازدحمد».

وتتجدد الآلام: «لو كل البلاد أنجبت بنات مثلنا.. من سيذهب للجيش؟! «الحريم؟!» ووتنطلق السخرية مرة. فبعدسنوات قليلة سيصبح العمدة «حرمة» وتسأل امرأة: وأين سيذهب العمدة؟..فتجلجل ضحكات رزقة: «سيكون بركتنا» وتتأمل الراوية الموقف: «هل علينا أن ننتظر) أن تمطر السماء رجالا تحمينا؟.. بعد أن هجرنا رجالنا.. تنازلوا عن رجولتهم؟!» وعندما تثور القرية وتخرج العمدة وولده من الدوار، وضعت الأنثى ذكرا لكننا لا نعرف إن كان ذلك وهما أو حقيقة «كان صوت الهون» يصك أذنى والمشاعل أنوارها نتوهج.. تتصارع.. كتلة واحدة تصرخ.. فجأة سمعت صوت فتحية مهرولة إلى. أفقت.. نظرت.. حدقت لم أجد الرجال.. اين المشاعل والنار فتحية: تعالى يا استاذة.. سعدية لم تنجب انثى إنها ذكر.. والله ذكر. هرولت معها. دخلت على السيدات وهن ينظرن صامتات مشدوهات ناحية «الرجل» الرضيع. وجدتنى اصمت معهن إجلالاً للموقف.. من رحم كل أنثى سيخرج ذكرى».

وتقابلنا روح المقاومة فى قصة: «البيت المهجور» أيضا. وتفتتح بزيارة الحفيدة لمنزل جدتها: «منزل جدتى أركانه خربة. مظلم يستولى عليه التراب ويمرح به العنكبوت بحرية، شققت خيوطه بصعوبة لأصل إلى مفتاح النور،

أضأته.. ندمت.. تأكدت لى ميزة جديدة للظلام..نظرت لصورة جدتى على الحائط.. بقايا من عز قديم فى ثياب العربية الموشاة ومجوهراتها..» وتدخل جارة عجوز وتعاقبها على نسيانهم الجدة وتذكر لها أن فأرا هجم على المنزل لم يكن هذا الفأر يجرؤ على الاقتراب فى حياة أم الجدة «جاءت والدتك يوما تحاول اصطياده دون جدوى، ولأن والدتك ووالدك فى سفر دائم كان من الصعب أن تذهب جدتك لداركم. حاولت الجدة اصطياده فلم تفلح. ثم أهدتها جارة جديدة قطعة قطة صغيرة وديعة. كانت الجارة الجديدة تشترى شقق العمارة الوالدة تلو الأخرى «لم يبق غيرى وجدتك» وكبرت القطة ولم تفعل شيئا غير الأكل والنوم حتى تحولت إلى نمر هاجم الجدة فتركت المنزل وهى تجرى وتتعثر. ولا تخشى تخفى رموز القصة على فطنة القارئ، خاصة الجدة ذات الملابس العربية والهوية العربية بعيدا عن تخطيطات الحدود المصطنعة وربما كان من معطيات هذه القصة تمثيل الجدة للتراث الذى نسيناه أو انشغلنا عنه. وتنتهى القصة ـ كسابقتها ـ بالأمل فى الآتى: «وجدتنى أسير نحو الشباك أفتحه... يا الله لم يزل فى الخارج نهار، ورأيت العجوز تنصرف وهى تبتسم تلك الابتسامة البيضاء».

وننتقل من رمز الجدة إلى رمز الجد بقصة: «حبات التوت». وكان الجد يضرب بعصاه الأرض فتنبت «شجرا مثمرا من فاكهة الجنة».

الشكل الخارجى للجد نعرف أنه عربى أيضا: «لحيته الدائرية تكمل استدارة الوجه القمرى، وثياب بيضاء، وعمامة...»وكان يسمى حفيدته «بدرا» رغم تنبيهها له بأن هذا ليس اسمها. وتلك إشارة إلى أنها ستحمل رسالته من بعده.

«انتظره مع الغروب بين الأعمدة الرخامية، تطول، تشق السماء، أدور حولها، لا أستطيع احتواءها بين ذراعى. تناسب شموخ منزل جدى، يبسط الكلب العجوز عنتر ذراعيه، شاب ولا يجرؤ أن يدخل من بين الأعمدة للدار. أنتظر الجد، يمد منديله الأبيض الناصع بحبات من توت أحمر». وربما تشير الأعمدة إلى الأصل الفرعونى. وللون التوت دلالته فى نظرنا ـ وقد توصلنا إلى هذه الدلالة عند حديثنا عن رواية: «القبو» لمحمد عبد الله عيسى: «وتنظر إلى الشجرة باعتبارها رمزا يتغذى من لحم الشهيد لينبت ـ فى أغلب الظن ـ توتا أحمر»[٢]. وبعد موت الجد وموت عنتر تجرأت القطط والكلاب وغاصت الأعمدة الرخامية. حينئذ، أخرجت الفتاة منديل من الجد صدرها، وكانت تفوح منه رائحة التوت، وسحبت عصاه وجلست أمام الدار: «لن يتجرأ بعد اليوم أحد.. لن نغلق هذا الباب».

وكذلك نواجه بالأمل الشاحب فى قصة: «هجرة» وتعود بنا هالة ـ فى هذه القصة ـ إلى ذكريات التهجير الآلمية: «لو رأيت «الزيتية» وهى تحترق.. ستون فنطاسا من زيت البترول لهب النار يصل للسماء، يحرق طيرها، يذيب السحاب، أربع ساعات فقط، أحالوها إلى جهنم.. هل يحرق الملائكة فى النار يا هدى؟ اسماعيل أخى ملاك.. عطوف.. كان فى «الزيتية»، ذهب فى الصباح ولم يعد..» وتفتتح القصة بمعاداة التلميذات للفتاة المهجرة لتفوقها عليهن، ويتهمنها بسرقة قلم وضعنه فى حقيبتها وتنتفض الفتاة من قسوة الاتهام ويغمى عليها. وفى الطريق تقول لصديقتها الوحيدة: «.. لست سارقة.. مسروق منى كل شئ. لماذا تنظرون لنا كأننا لسنا منكم؟!.. كل جرم لابد أن يكون الفاعل من المهجرين». ولابد أن

تطوف الكاتبة الملهمة بأماكن ايوائهم. وهم يقيمون فى مدرسة قديمة. لكل عائلة فصل. تجلس أمها على الأرض أمام موقد نار بعين واحدة.. «ملابس معلقة على الحائط، ستارة تشق المكان نصفين، صناديق وضعت عليها الكتب.. ودورات المياه ـ بطبيعة الحال ـ مشتركة «بالتأكيد لم تستحمى بالليل ـ مثلنا ـ هربا من العيون المخترقة للأجساد» . وتصحبها عائلة صديقتها الوحيدة إلى الفيوم. وتنتهى القصة بقول الراوية: لفنا الصمت ونحن نتأمل الطيور المهاجرة فوق بحيرة قارون، تتجه نحو الغرب» .وفى اتجاه الطيور نحو الغرب عودة إلى أعشاشها التى هاجرت منها طواعية قبل مطاردة الشتاء القارس لها. ولا يوجد فرق بين الموت بالحريق، والموت بالزمهرير. وتتعانق البداية والنهاية لتذوب معاناة الشدة فى أمنيات الفرج:

والعدوان الذان يضيقان علينا الخناق هما العدو الاسرائيلى والسفر إلى دول النفط وسبق أن رأينا السفر يتعانق مع الخوف فى قصة: «السماء تمطر رجالا» للقضاء على النخوة فينا. وكان الوالدان على «سفر دائم» فى قصة: «البيت المهجور» الأمر الذى لم يمكن الجدة من الانتقال إلى بيتهما ويتجسد السفر فى أقسى وأقسى بشاعاته بقصة: «سيدة»

استيقظ أهل الحى ذات يوم فوجدوا فتاة بلهاء لا يعرفون من أين جاءت ثمة من قال أنها متخلفة عقليا، ومن ادعى أنها فقدت الذاكرة إثر حادث أو تعرضت لظلم أفقدها اتزانها. وكشفت الأحداث عن صدق الاحتمال الأكبر/ أغدق رجل خليجى عليها وعلى ذويها فسافرت معه. اكتشفت أنها الزوجة الرابعة. عاشت مضطهدة حتى أصبحت أما لطفلين. ثم دعاها الزوج

لقضاء الشتاء فى القاهرة ولم يعد إليها وحرمها من طفليها.. لجأت لكل السلطات: السفارة والشرطة والقضاء. وخرجت تهيم فى الشوارع. سموها سيدة كانت تتلفظ بأسماء، وتغرورق عيناها بالدموع ثم تضحك ضحكات عالية، وتنادى العصافير وهى تجرى خلفها. وتنادى العمارات. تضع ساقا فوق ساق وهى جالسة على الأرض تطلب شايا وكيكا. وتحدث نفسها فى كبرياء . تنادى على صغار وهميين.. تطعمهم. فجأة تصرخ ترتمى على الأرض. تضمهم لصدرها. اختفت شهورا ثم عادت منتفخة البطن. اقترح أحد الجيران أن توضع فى مصحة عقلية.

وتستهل القصة وقد رأتها الراوية تقف أمام «مسرح العرائس» فى ثياب تجسد أناقتها، ثم تعود الكاتبة بالزمن إلى الوراء لتعرف قصة ضياعها إلى أن أودعت المصحة. ثم تعود إلى اللحظة الآنية لتحاول الراوية الاقتراب منها، فتجذب طفلها مبتعدة عنها وكان وراءها الجار الذى اقترح ايداعها المصحة، فيحكى للراوية قصتها، ويذكر لها اسمها الحقيقى، وأنها كانت مدرسة لغة فرنسية، وأنه تزوجها وانتقل بها إلى الاسكندرية. وتشير الراوية إلى هذا الرجل بعبارة: «جارنا الطيب» وهذه الصفة تنفى عنه اغتصاب الفتاة وسواء أكان هو الذى اغتصابها ثم انتبه إلى جرمه، أم أنه تزوجها بعد أن عادت إلى رشدها وعرف معاناتها، فإن الكاتبة لم تشأ أن تزحم قصتها بتفاصيل قد تؤثر فى المعنى الكلى، واكتفت بوصف الرجل بالطيبة. وكما افقدها عقلها حرمانها من طفليها، فقد أعاد إليها توازنها انجابها من جديد. واستطاعت الكاتبة أن تقيم جسرا بينها وبيننا لتوصيل نظراتها النفسية فى انسيابية يقظة: «انجبت ناهد ولدا جميلا. كانت تبكى وتصرخ. اتركوهم

لى. وخارت قواها وغابت عن الوعى بعد الإفاقة وضعوا الطفل على صدرها.. وكأنها قامت امرأة جديد. حملته بعناية. القمته ثديها. ربتت فوق شعره بحنان. ضمته. سالت دموعها تغطى وجهها. «الحمد لله» لقد عدت لى يا حبيبى».

ورغم عدم تمرد الكاتبة على التراث، نراها تتمسك بروحه لا بنصوصه الجامدة، وتريد أن تمزج بينها وبين روح العصر لكن السلطة الأبوية - فى شتى صورها مازالت تستغل النصوص الميته لتعزيز سيطرتها، حتى أصبحت تشكل علامات - كلسع الكرابيج - لا تمحى. ولهذا، فإننا نرى المرأة - فى المجموعة، وفى القصص التى سبق أن نشرتها الكاتبة بمجموعة مشتركة(٣) - تدافع عن كيانها كخلية حية فى بنيان متماسك. فى قصة «علامات» تتمرد الزوجة على تعاليم الأب، وتشعر بأن الطاعة العمياء للزوج ليست من شيمة المرأة الحرة ابنة عصرها. فعندما يقول لها أبوها: «أنت هجرت الطبع الطيب وتنكرت لكل عهودى معك» تجيب: «.. إنى أتجانس مع زمنى.. أتعايش مع رغباتى» ومن ثم فلابد أن تقابل نبذه لها بنبذ له وخروج من بيته: إذا لم أكن بلا معالم تميزنى عنه، فسيتوق لمن تخالفه الرأى، تشاركه الحوار» . إنها تحلم بطريق يختاره عقلها.. أدوسها برغبتى، وإن تشققت قدماى وخضبتها دماء الاختيار» لكن الأب يقول لها: «.. فلتذبحى حلمك وتعودى لما نقشته فوق صفحتك البيضاء.. عودى لزوجك...»

ولعل هذه القصة خير دليل على أن الشكل هو المضمون. فشكلها هو الذى وهبها معناها أو مغزاها. الابنة تخشى أن يعاقبها الأب كما كان

يعاقبها فى الماضى وعندما خرج مغرورق العينين، وأخبرتها الأم أنه مات منذ عامين، لم تصدق البنت أنها كانت تحلم: «جذبنى من ذراعى.. انظرى أثر يديه.. لا لم يمت.. رأيته..» وركضت حتى وصلت إلى المقابر وقرأت تاريخ وفاته. ثم همست وكأنها مازلت غير مصدقة: «هل أنت ميت؟؟!..» لكن يبدو أن الحلم والواقع يصطرعان داخلها. فقد دعاها إلى أن تخرج معه: ؟«تعالى معى حيث لاكذب، لاضياع». ولا شك إنه كان يدعوها إلى عالم الأموات دون أن ندرى لأننا لم نكن عرفنا أنه مات. أما هى فرفضت الذهاب معه بحجة خشية العقاب: «لا.. ستعاقبنى، ستخاصمنى، أرجوك كبرت على العقاب، فك قيودى.. أمح علاماتك من عقلى..».

الواقع أو الحقيقة فى خطاب الأب، والحلم أو الوهم فى اجابة الابنة. وهذا الامتزاج الذى لا انفصام له، يؤكد مدى قوة التعاليم الأبوية، وقدرتها على السيطرة حتى بعد موت الأب.

والعلاقة الزوجية فى قصة: «جناحان» عمرها خمس سنوات ولقد اتادا الزوجين أن يستقلا القطار كل خميس للسفر إلى أسرة الزوج. وكان الزوج ثرثار لا يطاق كأسرته. واعتادت الزوجة أن تجلس بجوار النافذة لقراءة الوان الخضرة، وأحيانا نتأمل وجوه الركاب. أما زوجها، فكان ينفتح فى الكلام.. أى كلام، ويوجهه إليها وإلى من يبتليه الحظ بالجلوس جوارهما. وعندما حسدتها إحدى صديقاتها لأن زوجها يفضل الصمت: «تذكرت أنه أبدا لم يكن يحادثها هى، دائما يتحدث بصوت عال ليسمع كل المحيطين بهما.. دائما كانت تأمل فى حديث هامس.. يخصهاهى.. لم يلحظ يوما أنها تمل ألا تكون لها خصوصية فى حياتها، عليها أن تذهب معه فى رحلتهما

الأسبوعية لجدران لا تختلف كثيرا عن جدران منزلها تجلس مع عائلته تتحدث فى كل شئ بصوت عال، تمنت لويكسر تلك القاعدة يوما ويرحل بها بعيدا.. لو يغار عليها..»

هذه المرة كان يوجه كلامه إلى أم معها صغيرها. وكان يتحدث عن حوادث القطارات فأفزع الولد: «تختلط الثرثرة بالضحك لا يبالى باتساع حدقتى الطفل والرعب المحفور فى عينيه ممسكا بملابس أمه: هل يقع حادث للقطار يا أمى؟...» وضاقت الأم بالثرثرة ورثت لحال الزوجة التى كانت تنظر إلى شاب أسمر بملامح دقيقة ونظرة صارمة حانية. كان يخط خطوطا على ورقة أمامه. ورأت السيدة ما يحدث فنظرت إليها مبتسمة كأنها تشجعها ولسان حالها يقول «أعلم شعور تلك النظرة على قلب المرأة». وكان الرجل الأسمر يحاورها بعينيه. وفى الورقة رأت صورتها «... وجهها .. جسدها بجناحين...» كم تمنت أن يكون لها جناحان أفاقات على صوت السيدة المراقبة للحظات البوح الصامت بجلال وهيبة وهى تحدث طفلها: «على الإنسان أن يصحح مساره.. أن يغير القطار إذا تكشف له خطأه» . ولم يفهم الطفل. ووعت الزوجة الدرس. وعندما نزل الرجل الاسمر فى محطته غادرت القطار خلفه. ولما جاء الزوج من البوفيه أشار له الطفل إلى الخارج فهرول خلفها. وعندما لحق بها لاهثا نظرت إلى جوارها فلم تجد فارسها الأسمر، لكنها أصرت على أن تكمل طريقها.. و«أكملت طريقها وحيدة فقد بنت لها جناحان».

ونحن مع قصة! «مذكرات أنثى» مازلنا فى نطاق تصحيح المسار، وراوية القصة تستعد لاستقبال الألفية الثالث بمنزلها. وربما كانت أول قصة تشير

إلى هذه المناسبة، وأول قصة تنتقد احتفالية وزارة الثقافة على سفح الهرم. «مرت ساعة.. لم أفهم شيئا.. الهرم فى الخلف.. أبو الهول، موسيقى فرنسية، أضواء صاخبة، صوت أم كلثوم.. حلم مزعج طويل.. تململت.. ألقيت الغطاء.. قفزت إلى مكتبى.. أخرجت دفتر مذكراتى القديم..» وتطلعنا من خلال دفتر المذكرات على صفحة من صفحات سيطرة السلطة الأبوية فقد منعها أبوها من المشاركة فى رحلة الأقصر. وعندما شكت لأمها انحازت إلى الأب: «ضاحكتنى أمى قائلة من طالب بحرية المرأة رجل تنفر منه النساء، المطالبون فاسدون، يخدشون حياءنا، يخربون عقولنا.. لا تكونى الفراشات تعدو خلف النور للرقص فتحترق الحرية لحن مسروق كلمات هابطة، نحن خائفون عليك..». واعتقدت البنت أنها ستحقق حريتها بعد الزواج. لكنها اقترنت برجل تفنن فى اهانتها «عرف نقيق ضفادع».. «يا بلهاء ماذا بك لاحبك؟».

وحين تزينت وتجملت وراقت فى عينيه اكتشفت أنه ديوث فانفصلت عنه. وها هى تحتفل بالألفية وحيدة. والجيران يمرحون. وكانت تقف عند الشباك عندما أطفئت الأنوار. وعند إضائتها كان بعضهم مازال يضع ذراعه على من تجاوره «آه.. خرجت من قلبى ممدودة عالية.. عدت أتلمس الحائط بإصابعى فى حركة راقصة..»

أما شخص قصة: «رجولة أنثى» فإنه لم يستطع أن يصحح مساره إلا بعد خمسة وعشرين عاما، أو لنقل بعد ضياع العمر. والقصة ليست قصته وحده، إنها قصة زوجه أيضا وما يخبئ لها من ضياع بعد انفصاله عنها. لقد ظلت طوال عمرها معه امرأة متسلطة حتى أنها لطمته ذات يوم أمام الأولاد.

وكانت هذه اللطمة هى القاصمة إلا أنه لم يستطع اتخاذ القرار الحاسم وقتها خشية على ابنته. وقالت لها خالتها: «لاأدرى لماذا يسكت عنك.. يا ابنتى ترفقى به، على أيامنا كانت المرأة تستحى أن ترفع عينيها فى وجه زوجها، وإن كانت قليلة الحياء مثلك فعلى الأقل لا تجرؤ على رفع يدها. ماذا حدث هل تمسكين عليه ذلة...» وأقسمت خالتها أنها «مريضة عقليا وأن القيامة ستقوم غدا» وكان الزوج يجلس عقب كل مشاجرة فى ظلام المشرفة، ويسمع أغنية: «فات المعاد» . قبلت يده ورأسه أمام الأولاد لكنه كان قد نفرمنها. وفى اليوم الذى أخذت تجترفيه ذكرياتها وتتحسر على ما فعلته طلقها، وكانت ابنته استقرت فى بيت زوجها.

ويبدو أن هذه المرأة النمرة، وليست المرأة الرجل كما ذهبت الكاتبة، كانت مريضة كما ذكرت خالتها فى ساعة غضبها. ومما يوكد مرضها النفسى أن الكاتبة الذكية أخبرتنا على لسانها أنها طلقت فى بداية الزواج: «ألم يطلقنى بعد عام من زواجنا لولا أننى سقطت مغشيا على، ولولا حماتى وبكاؤها لأجل حفيدتها الوليدة ما أعادنى لعصمته؟» وعادت الزوجة إلى صوابها بعد أن «فات المعاد» وصورت الكاتبة حنين الزوجة تصويرا بليغا معانقة الاستهلال بالخاتمة الدرامية الموفقة. وفى الاستهلال: «اقترب من فراش ركع على ركبتيه. ربت فوق ظهرى يوقظنى تماديت فى نومى لأقتنص المزيد من الحنان، داعب خصلاتى المنفلتة فوق الوسادة. تعانقها فى شوق لملمها بين يديه طرحها فوق وجهى. ابتسمت واستدرت» . كان حلما.. طواها الفراغ، وتباعدت جدران الحجرة، فانتفضت وفى السياق نقف أمام العديد من هذه اللمسات حتى تأتى الخاتمة. وتعرف

خبر طلاقها من ابنتها: «دخلت حجرة نومى حملت قمصانه بين ذراعى. ضممتها. شممتها. لاتحمل رائحته. إنها رائحة المكواةفتحت دولابه. ليس به ملابس بحثت عن بيجامته ليست موجودة .. كيف لم ألحظ هذا منذ الصباح؟!.. أخذ كل شئ يحمل رائحته.. حتى الرائحة بخل على بها ضممت القمصان لصدرى، رقدت فوق السرير... أدرت المسجل على شريط أم كلثوم «فات الميعاد».

وكان من الأفضل فى زعمى ـ أن يكون عنوان القصة: «فات الميعاد».. وعندما فات الميعاد بالنسبة للزوج لم تفهم المرأة لماذا كان يصر على سماع الأغنية فى الظلام وحده وتتهمه بالمراهقة، إلى أن فات بالنسبة لها أيضا. أما عنوان: رجولة أنثى» فيصدر حكما عاما على الرجل بالقسوة. ومن الرجال من هم أرق من النساء. وإذا ارادت الكاتبة دليلا، فخير دليل قصتها: «اختباء» فالمرأة فى هذه القصة ـ تترك وحيدها من أجل عشيقها، ليتكفل الأب ـ وحده ـ به. ويتمزق الطفل لهفة على الأم، ويتمزق الأب لهفة على الابن. فإذا أردنا المساواة، فلنعترف بأن النفس البشرية واحدة. وثمة عوامل كثيرة تتدخل فى تكوين الشخصية ـ من حيث القسوة والرحمة، والرقة والخشونة ـ ليس من بينها الجنس.

واذا كنا تعرفنا على الرجل الثرثار فى قصة: «جناحان» فإننا نواجه بالمرأة طويلة اللسان فى قصة: «جنازة.. سارة جدا!!» ونقول قصة تجاوزا، لأنها أشبه بالموقف الفكاهى فى مسرحية هدفها الضحك فالزوج يهرب من لسان زوجته الطويل، ويسير من «الهرم» إلى «القلعة» دون أن يشعر . وعندما يحط على أحد القهاوى يخلع نعليه ويستغرق فى النوم، ويستيقظ فجأة

على صوت جنازة جماعية، يبتسم الرجال خلفها فالنساء يمتن بالجمله، وبعض الأحياء تطهرت منهن. ويهرول إلى داره ناسيا حذاءه فيحسب أن زوجته عفريتتها، لكنه يفيق على الحقيقة المرة: «بحلق فى وجه حماته.. نفس ملامح زوجته ولسانها يخرج.. يسعى.. يلتف حوله.. يسقط.. لا يتنفس.. يحمل إلى قبره.. يمرون به من الهرم إلى القلعة إلى السيدة عائشة».

ونواجه بالخداع فى أقاصيص: «غلطة» و «وجه آخر» و «عشق.. فقط». مع الأولى لا نعرف من رقة التناول هل نقف مع المرأة أوضدها. وتأتى القصة فى صورة خطاب لم يصل من الأم إلى وليدها ، تخبره فيه نجيانتها وخديعة زوجها وأنه ليس من صلبه تزوجت ـ كما تقول ـ بورقة رسمية، وعاشت مع من اختاروه لها حياة تشع بالحنان الأبوى، وانجبت واهتم الزوج بالوليد، لاهيا عن أنوثتها التى تصرخ داخلها. واقترب والد المخاطب من حياتها وكان صديقا للأسرة وتحرك المخاطب فى أحشائها هل تجهض نفسها؟.. هل تنتحر.. وتتعانق البداية مع النهاية كعادة كاتبتنا فى قصص كثيرة فى البداية: «لم أكن أدرى أنه سيأتى يوم تخط يدى تلك الكلمات، أجمع بيدى حروفا نقص عليك أنت دون كل البشر قصة جريمتى فى حقك..» وفى النهاية: «سألقى ببقايا عمرى وقصاصات رسالتى تحت قدميه... سأعود لأستمع لأغانى الخيانه أشاهد روايات الخديعة وأبكى، أسمع صفعات الشرفاء على وجهى وأبكى.. لكنى إليه اشتقت... اشتقت..»

والقصتان الأخريان تصدران عن تجربة واحدة وخديعة المرأة فى قصة: «وجه آخر» أشد وأنكى من خديعتها فى قصة: «عشق...فقط». يقول

المخادع فى الأخيرة: «لا تسألينى عن قيد تهواه النساء، ويعبر فيه الوجد، أنا زرزور شارد، يرفض الشباك الزوجة سجن عفريت من نار، أفضل البوح بين يديك، عن النوح بعيدا عنك...»

واستطاعت الكاتبة تعميق معطيات التجربة فى الأولى باستمرار الخدعة إلى أن فاتها «قطار الزواج» كما قالت أمها، وتخطت سن الانجاب كما اكتشف بعد زواجها ممن تقدم لها.. ولهول الخدعة فى حد ذاتها بعد أن اكتشفت أنه تزوج من احدى قريباته الريفيات فور تخرجه وأنجب منها طفلين.. ولهذا فعندما دخل بيته وفوجئ بوجودها مع زوجته التى تخففت معها من حجابها، فكشفت وجهها ووضعت غطاء رأسها بجانبها: حملقت فيه، استدرت، لم أسقط من طولى، لكن سؤالا سق على رأسى كجبل.. كيف عشقت هذا الرجل؟؟؟...». وربما رأينا تغيير صيغة السوال ليصبح: كيف استطاع هذا الكائن الحجرى المتحلل أن يخدع الفتاة بدعاوى التحرر؟.. فقد كان يردد ذات الأفكار التى كان يرددها المخادع السارق:«لن أكون سجانا لك أو لغيرك.. أعلمك الحرية، أن تكونى نفسك لا مايرسمه لك الآخرون، الحب لا يحتاج لقالب يتجمد به. الحب حر وأنا حر.. وأنت حرة..».

وتتميز هاله فهمى باللمسات الرقيقة والروح الحانية فى تعاملها مع أعقد المشاكل وأنكر الخصال. وإذا قابلنا بين قصة «خادمة» وقصة «لحظة» ليوسف إدريس، رأينا أن هالة تريد أن ترسخ مفاهيم جديدة فبعد أن اهتم كاتبا بتصوير قسوة ربات البيوت على الخادمات، جاءت هالة تنفخ فيهن من روحها مصورة رقتهن مع من يعملن فى بيوتهن وتحكى القصة على لسان خادمة عرفت شظف العيش فى الريف لكنها كانت راضية وسط أهلها.

وعندما طلبوها لمقابلة ضيوف ظنت أنهم جاءوا لخطبتها لا لاصطحابها إلى القاهرة للخدمة. وفزعت الفتاة بيد أن السيدة عاملتها برقة بالغة: «هى حنون لكنها ليست أمى» وعندما عادت إلى الريف عادت بهيئة أخرى كرفل فى ثياب جديدة. واحتضنتها أمها ودعت للسيدة: «وقتها أردت العودة معها.. أحببت اسمى، مهنتى الجديدة: خادمة». ولقد انساقت الكاتبة مع أفكارها الانسانية الرقيقة، بيد أنها نحت نحو المبالغة مع آخر كلمة: «خادمة» والمعروف أن الكلمة لها تاريخ منحط لدنيا لا نستطيع له تجميلا، والأفضل الاستغناء عنه. وباستثناء هذه الكلمة، حالف العبارة الخاتمة التوفيق لاتفاقها مع تطور الأحداث فى انسياق.

وبذات اللمسات الرقيقة الحنون يتحدث شخصية «رحيل البنفسج» عن أصص الزهور بشرفة منزلها: «.. أداعب عود الياسمين الصغير وهو يشب ليقبل السماء، ابتسامات الريحان وشقاوة القرنفل، أسقيها... أمسح بأطراف أصابعى صنفرة أوراقها.. لاتمسح.. ابحث عن اصيص البنفسج.. أرى شظاياه أسفل الشرفة.. هرولت إليه. حملت شذرات البنفسج.. مازال يتنفس.. وضعته فى كوب ماء. اتأمله.. أداعبه.. أهدئ من روعة..»

عندما اتجه الشعراء الوجدانيون إلى القصيدة القصة، كان لخليل مطران عدة تجارب معها من بينها قصيدة: «الوردة والزنبقة»(٤) التى سطر تحت عنوانها عبارة: «حكاية فتاة أبعد عنها أليف صباها، لأن أهله، وهم أغنياء، أبو تزويجه منها وهى فقيرة». والغنى والفقر مسألة نسبية، فها هى الفتاة تخرج مع الفجر إلى حديقة دارها، تتأمل جمال أزهارها، وتنتقى بعضنا منها، علها تعينها على ما تعانيه..

إلى أن بدت لى وردة مستكينة

كأن دموع الفجر فيها تهلل

لها طلعة الجاه المؤثل والصبا

وفى الوجه يقطيب لمن يتأمل

تلوح عليها للكآبة والأسى

مخايل دقت أن ترى فتتخيل

ويكسبها معنى الحياة ذبولها

لدى ناظريها، فهى فى النفس أجمل

ملكية ذاك الروض، جاور عرشها

من الزنبق العاتى مليك مكلل

أغر المحيا كالصباح نقية

له قامة كالرمح أوهى أعدل

إذا ما استمالته إلى الوردة الصبا

فلا ينثنى كجداره ولا يتحول

وبينما يدها تمتد إليهما، والاشفاق يمنعها عنهما، إذا والدها طوقها بيمينه، وفى عينيه دموع، ويقول لها شفيعا للزهرتين، دون أن يدرى بوقع كلامه عليها لجهله أمر حبها:

بنية عفوا عنهما، فكلاهما

شقى يود الموت، والموت ممهل

فلا تسبقى سيف القضاء إليهما

على أنه يشفيهما، لو يعجل!

حبيبان، سرا ساعة ثم عوقبا

هويلا، فذاك الدهر يسنو خو ويبخل

وإن لهذين العشيقين حادثا

مخرييان بودى أن أرى كيف يكمل

فقد جاورت هذه الوفية إلفها

إذ الإلف مياس المعاطف أميل

فكان إذ مرت به نسم الصبا

يسر إليها يسر من يتغزل

يداعبها جهد الصبابة والهوى

ويعرض عنها لاعبا ثم يقبل

ولكنه، لم يلبث الغص أن جفا

فلم تشق عطفيه جنوب وشمال

فشق عليها بينه، وهو جارها

وباتت لفرط الحزن تذوى وتنحل

وعما قليل يقضيان من الجوى

وإن صح ظنى فهى تهلك أول

والقصيدة خطاب من الفتاة إلى حبيبها تخبره بقصة الوردتين التى هى قصتهما كما ذكرت، وتنهيها بقولها:

هما صورتانا فى الهوى، وحدثينا

حديثهما بين الأزاهر ينقل

أقبل ذاك الغصن كل صبحية

كأنى للنائى الحبيب أقبل

وانظر أختى فى الشقاء كأننى

آرانى بمرآة أموت وأذبل

وفى قصة: «رحيل البنفسج» تغيب ملامح الشرفة لتستقبل الفتاة صوت الذكريات، أو كما تقول: «اسمع صوت حكاياتى».

وكانت الحكاية الأولى عن مرحلة الصبا. ويصبح البنفسج ـ منذ هذه المرحلة. معادلا للطفل ـ الحبيب فيما بعد ـ الذى يلعب معها. تماما كما حدث فى قصيدة: «الوردة والزنبقة» عندما اتخذ الشاعر منهما معادلا للفتى والفتاة والعلاقة بينهما. ولاتلجأ هالة إلى الفقر والغنى للتعبير عن «البعد» كما هى عادة الرومانتيكيين، بل تتخذ من «الهجرة» معبرا لغايتها وانتقالها

فى لحظته الآنية. كانت فتاة القصة تتمنى أن تصبح طبيبة، وكان فتاها يتمنى أن يصبح كعمه المهاجر. ويبدو أن أمنيته فى الهجرة تحققت.

تعود الفتاة من رحلة عمر الزهور إلى شرفة الزهور لترى عصفورة صغيرة تهبط على اصيص الفل، وعندما تمد لها يدها طارت. وطارت معها إلى مرحلة الشباب والحب واهداء الفتى لفتاته اصيص البنفسج فأخذته ليكبر فى بيتهما. وتعود العصفورة، ثم تطير مرة أخرى إلى الغرب، فتشعر أنها لن تعود هذه المرة»

وهذه القصة الشاعرية ليست بحاجة إلى التدخل النقدى إلا بالقدر الذى قدمناه: فلقليلون من النقاد - كما يقول لابرويد - هم الذين لديهم العقل المقرون بالذوق سليم والنقد الحكيم».. وأحسب أننا لسنا منهم، ومن ثم نكتفى بأن نردد مع بيرم التونسى وصالح عبد الحى:

ليه يا بنفسج

بتبهج

وانت زهر حزين

ونشعر بعد هذه المسيرة مع اشراقات هالة فهمى أنها وضعت - نهذه المجموعة - قدما ثابتة على الطريق. وأن طريق الفن الرحب يفتح لها ذراعيه مرحبا.

الهوامش

(١) يراجع مقالنا: زمن القصة القصيرة، مجلة: الثقافة الجديدة، مايو ٢٠٠٠

(٢) يراجع كتابنا: الحقول الخضراء، كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة. ١٩٩٥

(٣) أجنحة البوح. جماعةِ الجيل الجديد الفكرية القاهرة، ٢٠٠٠

(٤) ديوان الخليل، دار الهلال، القاهرة، ١٩٤٩، ص١٣٤.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٨١٤ /٢٠٠١

I . S . B . N 977 - 01 - 7157 - 3